حياة جاليلُيو

تأليف

برتولت برشت

ترجمة وتقديم

د. عبدالرحمن بدوي

العنوان الأصلي للمسرحية :

Bertolt Brecht:

Leben des Galilei

Schauspiel

Suhrkamp Verlag

مقدمة مسرحية «حياة جَاليو»

بقلم المترجم

- ١ -

جاليو كما عرفه التاريخ

بين جاليو كما عرفه التاريخ، وجاليو كما صوره برشت في هذه المسرحية مشابه كثيرة.

أما جاليو، الرياضي والفيزيائي والفلكي العظيم فقد ولد في بيزا (بشمال غربي إيطاليا) في ١٥ فبراير سنة ١٥٦٤، وكان أبوه موسيقيا لا بأس به (نحو ١٥٣٣ - ١٥٩١) مما ولد في نفس ابنه حب الموسيقى، ودفعه إلى إتقان العزف على العود. وقام بدراساته الأولى في بيزا، ثم في فلورنسه، ودخل جامعة بيزا في ٥ سبتمبر ١٥٨١، وبدأ بدراسة الطب، وعقب عليه بدراسة الفلسفة والرياضيات. غير أنه ما لبث أن انقطع عن دراساته الجامعية ربما لسوء ظروف أسرته. وأخذ في دراسة الهندسة على يد أوستليو رتشي Ostilio Ricci، معلم خدم الدوق الكبير. واستطاع بجهده الشخصي أن يتعمق في دراسة مؤلفات أرخميدس، ولحل مشكلة تاج هيرون اخترع الميزان المائي (الهدروستاتيكي)، وقد وصفه في رسالة صغيرة بعنوان «الميزان الصغير» (سنة ١٥٨٦). وقام بأبحاث هندسية عن مراكز الثقل في قطاعات الأشكال الهرمية، والمخروطات، والأشكال شبه المخروطية ذات القطع المكافئ أخبر بها الأب كرستوفور كلافيوس في أثناء زيارة جاليو الأولى لروما في النصف الثاني من عام ١٥٨٧، وكذلك بعث بها إلى مولتي Moletti مدرس الرياضيات في بدوفا (بالقرب من البندقية)، وإلى العالم الرياضي المركيز جيدوبلدو دال مونتي Guidubaldo Dal Monte، فسعى هؤلاء إلى تعيينه في جامعة بيزا وصار مدرسا بها في يوليو ١٥٨٩. وكان في تدريسه يتبع ما هو مقرر، لكنه بدأ في تفنيد نظريات أرسطو في الفيزياء واشتغل بالميكانيكا. فأنكر نظرية أرسطو القائلة بأن الأجسام المختلفة الأوزان تسقط بسرعات مختلفة. وفي رسالته الصغيرة عن الحركة De motu (نحو سنة ١٥٩٠)، وقد

كتبها على شكل حوار، نجد أبحاثا عن حركة الأجسام الثقيلة على المستويات المائلة، واعتراضات عديدة على نظرية أرسطو في حركة المقذوفات. وفي أثناء تدريسه في بيزا قام بتجاربه المشهورة من فوق برج بيزا للتأكد من أن كُرَتين متساويتين في الحجم ومختلفتين في الوزن تسقطان بالسرعة نفسها، كذلك اكتشافه أن ذبذبات البندول تتم في وقت واحد، بمعنى أن البندول يحتاج إلى الكمية نفسها من الزمن لإتمام ذبذبته، مهما كان اتساع مدى الذبذبة. وكان لهذا الاكتشاف الأخير أثره فيما بعد حين رأى جالليو أن مبدأ البندول يمكن أن يطبق لضبط الساعات الكبيرة. وقيل إنه اكتشف هذه الظاهرة وهو يلاحظ تذبذب المصباح في كاتدرائية بيزا.

وبعد وفاة أبيه سنة ١٥٩١ زادت مطالب العيش عليه. فحمله ذلك على تقديم طلب للحصول على كرسي الرياضيات في جامعة بادوفا، وتولى هذا المنصب في سبتمبر سنة ١٥٩٢ خلفا للأستاذ مولتي Moletti. ومن برنامج التدريس يتبين أنه كان في بادوفا، يدرس «أصول الهندسة» لأقليدس، وكتاب «الأُكَر» (جمع: كرة) تأليف سكروبوسكو Sacrobosco، و«المجسطي» لبطلميوس، و«المسائل الميكانيكية» لأرسطو و«نظرية الكواكب السيارة». أما في دروسه الخاصة (وكانت العادة في هذا العصر أن يعطي الأستاذ دروسا خصوصية للتلاميذ الراغبين في ذلك، وهم يقيمون في منزله للسكنى والطعام أيضا) فقد كان يدرس بعض أبحاثه الخاصة، مثل استعمال الفرجار الهندسي والعسكري، وعلم الميكانيكا، وفن الحرب. وبفضل مهاراته في التدريس الخصوصي وفد عليه الطلاب من أنحاء أوروبا. وقد كتب في هذه الفترة الرسائل الآتية: المعمار الحربي، بحث في التحصينات الحربية، بحث في الكرة، تبعا لنظام بطلميوس، وبحث في الميكانيكا.

ومنذ سنة ١٥٩٧ عمل على تحسين آلة ابتكرها المركيز دال مونتي، مما أدى به إلى عمل الفرجار الهندسي والعسكري، وهو نوع من المسطرة الحاسبة، وتم عمله بواسطة صانع ماهر هو ماركو أنطونيو متسوليني Mazzolini تحت إشراف جاللِيو.

وفي أثناء العامين الأخيرين من إقامته في بادوفا (١٦٠٩ - ١٦١٠) عني بتحسين المنظار الذي سُمِّيَ فيما بعد باسم التلسكوب، والذي بفضله قام باكتشافات فلكية هائلة.

وقد أثبتت الوثائق التي اكتشفها ك. دي فارد C. de waard في المحفوظات التاريخية الهولندية في سنة ١٩٠٦ أن يانسن زخرياس في مدلبورج Janssen Zacharias vom Middelburg صنع أول جهاز ركب فيه عدسات داخل انبوبة وذلك في سنة ١٦٠٤. كذلك ركب هانز لبرشاي Hans Lippershey في مدلبورج أيضا مناظير ذات عدسات داخل أنبوبة. ووصل نبأ هذا الاختراع إلى مدينة البندقية في نوفمبر سنة ١٦٠٨، ومن المحقق أنه في أوائل سنة ١٦٠٩ كانت تباع مناظير من هذا النوع في باريس وإيطاليا. وقد عرف جالليو بهذا الاختراع في ربيع سنة ١٦٠٩.

واعتمادا على هذا المنظار قام جالليو بصنع تلسكوب أقوى من هذه المناظير الهولندية الصنع، وقدم هذا التلسكوب إلى مجلس شيوخ البندقية في ٢٥ أغسطس سنة ١٦٠٩ فأدهش الجميع. وقد كانت قوة أول نموذج صنعه ثلاثة أضعاف قوة المنظار الهولندي الصنع. ومن ثم أدخل عليه تحسينات بسرعة، حتى صارت قوته ٣٢ ضعف قوة المنظار الهولندي. ويعود الفضل في ذلك إلى الطريقة التي ابتكرها جالليو لضبط انحناءات العدسات. ونظرا إلى قوة هذا التلسكوب الذي صنعه جالليو، أمكن استخدامه في الأرصاد الفلكية(*).

وكان جالليو أول من استخدمه في دراسة السماء في أواخر سنة ١٦٠٩ وأوائل سنة ١٦١٠، فتوصل به إلى سلسلة من الاكتشافات الفلكية، أهمها:

١ - اكتشف أن سطح القمر غير منتظم ولا أملس كما كان يُظَن فيما مضى.

٢ - ولاحظ أن المجرة مؤلفة من مجموعة من النجوم البعيدة.

٣ - واكتشف توابع كوكب المشتري، وسماها النجوم المدتشية Sidera Medicea على اسم تلميذه السابق، كوزمو الثاني، دوق توسكانيا الكبير.

٤ - اكتشف أو لاحظ بقعا على الشمس.

٥ - شاهد أوجه (أطوار) كوكب الزهرة Les Phases de Venus وما بدا له أنه أشكال زُحَل الثلاثة. وقد أعلن هذه الاكتشافات في Sidereus Nuncius (مارس سنة ١٦١٠).

(*) راجع عن تاريخ التلسكوب:

H.C. King: The History of the Telescope. Charles Griffin, London, 1955, 456pp.

وقد أثارت هذه الاكتشافات الكثير من المجادلات والمنازعات من جانب أنصار أرسطو، ومنهم مارتن هوركي Horky، ولودفكو دلي كولومبي Lodovico delle Colombe وفرنشسكو ستسي Fr. Sizi. لكن أيدها فلكي عظيم هو كبلر Kepler. ولم يعدم جالليو من يدعي أنه سبقه إلى بعض هذه الاكتشافات، مثلما فعل سيمون ماير Simon Mayr في كتابه Mundus Jovialis (نورمبرج سنة ١٦١٤).

ومكافأة لجالليو على هذه الاكتشافات، قرر مجلس شيوخ جمهورية البندقية تعيينه أستاذا مدى الحياة مع مرتب ممتاز. لكن رغبته الحارة في العودة إلى وطنه (فيرنتسه ورغبته في التحرر من متاعب التدريس للتفرغ للمشاهدات الفلكية والأبحاث العلمية، حملته على قبول منصب «رياضي فوق العادة في معهد بيزا وفيلسوف صاحب السمو الدوق الكبير»، مع عدم الالتزام بالتدريس ولا بالإقامة في المعهد ولا في مدينة بيزا. وكان ذلك في أول يوليو ١٦١٠.

وهكذا ترك جالليو بادوفا بعد إقامة استمرت ثماني عشرة سنة وهو في أمان تام وحرية مكفولة للبحث والكتابة. وهنا في بادوفا ولد له من زوجته مارينا جمبا Marina Gamba ابنتان وولد. والابنة الكبرى هي فرجينيا(*)، وكانت بكر أولاده، وكان يؤثرها بالحب الشديد، وقد ولدت في ١٣ أغسطس سنة ١٦٠٠، ولكنها دخلت طريق الرهبنة وصارت راهبة في ٤ أكتوبر سنة ١٦١٦ في دير القديس متى في أرشتري Arcetri، وفي هذا الدير توفيت في ٢ أبريل سنة ١٦٣٤. وقد بقي لنا منها ١٢٤ رسالة كتبتها إلى أبيها في الفترة ما بين ١٦٢٣ و ١٦٣٣، واسمها في الدين الأخت مارية شيلستي Maria Celeste، وكانت متدينة ولكن بنوع من التفتح الذهني، وحريصة دائما على أن تشارك أباها آلامه ومسراته، وأن تعاونه قدر ما تستطيع. وقد استغل برشت شخصيتها - مع بعض التعديلات طبعا - في هذه المسرحية خير استغلال: تدينها، عطفها المستمر على أبيها. أما حكاية خطبتها إلى لودفكو مرسيلي، فهي من اختراع برشت.

(*) راجع عنها
Galileo Galilei & Sour Maria Celeste. Firenze, 1891.
(وقد نشرت فيه ص ٢٣٣ - ٤٢٤ كل رسائلها إلى أبيها).

أما الابن فنشنتسو Vincenzo (١٦٠٦ – ١٦٦٩)، فكان شاعرا رقيقا.

ونتابع حياة جاليليو فنقول: إنه في السنة التالية، سنة ١٦١١، سافر إلى روما (٢٩ مارس – ٤ يونيو ١٦١١) أولا ضيفا على سفير توسكانيا ج. نيكوليني، ثم أقام بعد ذلك في فلا مدتشي الشهيرة في رابية Trinita deiMonti (حيث توجد الآن مدرسة روما L, Ecole De Rome التابعة لفرنسا)، واستقبله البابا بولس الخامس. وفي حديقة الكورينالي عرض اكتشافاته على العلماء اليسوعيين في الكلية الرومانية Collegium Romanum، فاستطاعوا أن يشاهدوا الكواكب المدتشية من نوفمبر سنة ١٦١٠، إلى أبريل سنة ١٦١١، واحتفلوا احتفالا عظيما بجاليليو. وكان هؤلاء العلماء اليسوعيون، بناء على طلب من بلرمينو، قد أيدوا اكتشافات جاليليو، فيما عدا تحفظ أحدهم، وهو كلافيوس، على نقطة جبال القمر. وفي ١٢ أبريل اختير جاليليو عضوا في أكاديمية لنشاي Lincei، التي لاتزال شهيرة بعلمائها وأبحاثها حتى اليوم.

وقامت مناقشة حول أسباب طفو الثلج، تبعا لأرسطو والمشائين، فاشترك فيها جاليليو بكتاب بعنوان: مقال إلى صاحب السمو دون كوزمو الثاني.. (سنة ١٦١٢) وفيه مبادئ علم المائيات (الهدروستاتيكا) تبعا لأرخميدس. وقد أثار ردودا من جهة المشائين: كورزيو G.Corresio ودي جرسيا V. Di Grazia، فرد عليها تلميذه الأب. ب. كاستلي B. Castelli الأستاذ في بيزا وكان تلميذا لجاليليو في بادوفا.

واكتشف جاليليو البقع الشمسية (في يوليو سنة ١٦١٠) وعرضها في البندقية ثم في روما بين مارس وأبريل سنة ١٦١١، كذلك اكتشفها في الوقت نفسه ج. فابرتسيوس، الذي ظهر كتابه في هذا الموضوع بعنوان Narratio de Maculis in sole observatis (ذكر البقع الملاحظة في الشمس) في سنة ١٦١١. أما جاليليو فقد نشر رأيه فيها في كتاب بعنوان De-maculis Solaribus في يناير وسبتمبر سنة ١٦١٢ باسم مستعار هو Apelle، وقد دافع جاليليو عن كونه هو أول من اكتشفها. وأثارت مسألة أولية اكتشاف البقع الشمسية هذه مجادلات لا تنتهي حتى الآن.

وهنا حدثت العاصفة الكبرى. أن جاليليو كان من أنصار النظام الذي قال به كوبرنيكوس، وهو أن الشمس في المركز وأن الأرض مجرد كوكب سيار يدور في فلكها. وقد عبر جاليليو عن تأييده نظام كوبرنيكوس في رسالة كتبها إلى ياكوبو ماتسوني في

مايو سنة ١٥٩٧، وفي رسالة أخرى كتبها في ٤ أبريل إلى كبلر فيها يؤكد صحة نظام كوبرنيكوس أكثر وأكثر. وعبر عن ذلك في رسالة كتبها إلى ب. كستلي B. Castelli في ٢١ ديسمبر سنة ١٦١٣، مع مزيد من التحقيق. وقد قال في كلتا الرسالتين إنه من الخطر إدخال الكتاب المقدس في نزاع مع نتائج العلوم الطبيعية لأن الكتاب المقدس لا يمكن أن يخطئ، ولكن الشراح هم الذين يخطئون خصوصا والكتاب المقدس يستخدم لغة يفهمها الجمهور وإليه وجهها وكيفها مع عقلية الجمهور. وأكد أيضا أن النص الوارد في الكتاب المقدس – بشأن وقف يوشع للشمس عن الدوران – يتفق تماما مع نظام كوبرنيكوس. غير أن راهبين دومنيكيين – وللرهبان الدومنيكان تاريخ أسود في اضطهاد حرية الفكر في أوروبا – هما ت. كاتشيني T. Caccini و ن. لوريني N. Lorini، أثارا ضد جاليليو حملة شعواء علنية. فأولهما، كاتشيني، من منبر كنيسة سنتا ماريا نوفلا في فيرنتسه اتهم جاليليو في أوائل سنة ١٦١٥ علنا بالهرطقة. وثانيهما، وهو لوريني، قدم طعنا في جاليليو إلى الديوان المقدس في روما بسبب البِدَع التي يحتوي عليها خطابه المذكور إلى كستلي. فأمر الديوان المقدس بإجراء تحقيق في هذا الخطاب وفي الرسائل التي كتبها جاليليو عن البقع الشمسية، وذلك في ٢٥ نوفمبر سنة ١٦١٥. وعلى الرغم مما قام به جاليليو في سفرته الثالثة إلى روما من محاولات لإفساد تدابير أعدائه هذه، فإن الديوان المقدس، برئاسة ر. بلرمين، أعلن بطلان نظام كوبرنيكوس في ٢٥ فبراير سنة ١٦١٦، وأمر جاليليو بالامتناع من تعليم نظام كوبرنيكوس، أو الدفاع عنه أو معالجته على أي وجه، وإلا أدّخل السجن. وأُبلغ جاليليو قرار المحكمة هذا في ٢٧ فبراير سنة ١٦١٦. وقد قبل جاليليو هذا القرار وأعلن أنه سيطيعه.

وفي ٥ مارس سنة ١٦١٦ حرَّمت هيئة الرقابة على الكتب Congregazine dell,Indice قراءة كتاب كوبرنيكوس، وكذلك سائر الكتب التي تعلم النظام نفسه. وفي يونيو ١٦١٦ عاد جاليليو إلى فيرنتسه فنصحه الدوق الكبير، كوزمو الثاني، وأصدقاؤه وعارفوه بإطاعة قرار الديوان المقدس والاعتصام بالسكينة.

وكان الكردينال بلرمين قد استقبل جاليليو في يوم ٢٦ فبراير، وأبلغه القرار الذي سيصدر، وحَذَّره من أن عليه من الآن فصاعدا ألا يقول بنظام كوبرنيكوس وألا يدافع عنه.

واســتجاب جالليــو فعلا للقرار. فظل طوال الســنوات الســبع التالية (١٦١٦ - ١٦٢٣) فــي عزلــة في بيته في بلوســجواردو Bellosguardo بالقرب من فلورنســه، يواصل دراســاته وأبحاثه في عزلة وهدوء. وفي ســنة ١٦٢٣ رد على رســالة كتبها أحد اليســوعيين، وهو أوراتسيو جراســي Orazio Grassi عن طبيعة المذنبات، وكان من الواضح أن صاحبها يقصد إلى الطعن في جالليو. وكان الذي دفع جراســي إلى تحرير رســالته هذه ظهور ثلاثة مذنبات في ســنة ١٦١٨، فانتهزها هذا اليســوعي فرصــة للهجوم على نظام كوبرنيكوس، ومن ثــم للهجوم على جالليو. وكان عنوان رد جالليو، وقد أهداه إلى البابا أربان الثامن هو:

Saggiatore nel quale con bilancia esquisita & giusta si poderano Je cose contenute nella libra astronomica & filosofica.

وفيه يرد على ادعاءات س. ماير بأســبقيته في اكتشــاف البقع الشمسية، ثم يعرض كل اكتشــافاته الفلكية، ويروي قصة اختراعه للتلسكوب، ثم يرد ردا مفحما على كل نقطة أثارها أوراتسيو جراسي.

وفي ســنة ١٦٢٤ زار روما للمرة الرابعة واســتقبله البابا أربان الثامن - واســمه الأصلي مافيو بربريني Maffeo Barberini - وهو الذي طالما أظهر إعجابه به وعطفه عليه منذ أن كردينالا.

ثــم عــاد إلى فلورنســه، وهناك اخترع وحسَّــن المجهر المركــب - Microscopo Composto، وأرســل نموذجا منه إلى اتشــيزي Cesi في سبتمبر سنة ١٦٢٤، وقال عنه: «إنه منظار لرؤية الأشياء المتناهية الصغر من قرب».

وفي الوقت نفســه ظل جالليو يعمل في تأليف كتابه الرئيسي: المحاورة Dialogo وكان موضوعــه نظام العالم. وفرغ منه نهائيا في ديســمبر ســنة ١٦٢٩، وكان معدا للطبع في مايو ســنة ١٦٣٠. وبعد رحلة أخرى إلى روما ومجهودات مضنية اســتطاع الحصول على إذن بطبع الكتاب.

وظهر هذا الكتاب في فبراير سنة ١٦٣٢ بعنوان:

Dialogo di G. Galilei,... dove ne i congressi di quattro giornate si discorre sopra i due massimi sistemi del mondo, tolemaico & copernicano, proponendo indeterminatamente le ragioni folosofiche e naturali tanto per l,una quanto per l,altra parte(*).

ومكان الحوار هو البندقية، والمتحاورون هم:

١ – فيليو سلفياني (١٥٨٢ – ١٦١٤) وهو عين من أعيان فلورنسه، وعضو في أكاديمية لنشاي، وفي بيته كتب جالليو رسالتين من رسائله الثلاث عن البقع الشمسية. وهو يمثل آراء كوبرنيكوس وآراء جالليو.

٢ – جو فني فرنشسكو سجريدو، وهو من البندقية (١٥٧١ – ١٦٢٠) ويمثل «الإدراك السليم».

٣ – سمبلتشيو Simplicio، وهو من أنصار أرسطو، ولقب بهذا الاسم على اسم شارح أرسطو المشهور: سنبلقيوس. وهو يمثل أرسو وأنصاره، وإن كان أعداء جالليو قد حاولوا إيهام البابا والناس أن المقصود به هو البابا نفسه، أربان الثامن، وذلك على أساس أن المؤلف قد وضع على لسان سمبلتشيو هذا العبارات التي بها دافع البابا عن نظام بطلميوس.

وتجري مناقشات اليوم الأول في نقد نظرية أرسطو في الحركة، والدفاع عن آراء جالليو في وجود جبال وبحار في القمر. وخصص اليوم الثاني للبحث في حركة الأرض اليومية حول محورها وتفنيد الحجج التي سيقت لتأييد عكس ذلك، وفي الأسباب التي تدعو إلى ترجيح نظام كوبرنيكوس. وفي مناقشات هذا اليوم يعرض جاللیو آراءه في الديناميكا، ومبدأ القصور الذاتي، وفي القوة الطاردة، ويعرض قوانين سقوط الأجسام، وقوانين ذبذبات البندول، وفي كون سرعة سقوط الجسم مستقلة عن وزنه. وفي اليوم الثالث يدور الحوار حول أسباب حركة الأرض حول الشمس، وتفسير مواقع النجوم وفق كوبرنيكوس، وحول أوجه (أطوار) الزُهَرة والبقع الشمسية. وفي هذا الحوار تأييد حار لنظام كوبرنيكوس ونبذ شديد لنظام بطلميوس، كما

(*) وترجمته: «حوار تأليف جاللیو جاليلاي... وفيه خلال جلسات استمرت أربعة أيام جرت مناقشة حول أكبر نظامين للعالم: نظام بطلميوس ونظام كوبرنيكوس، مع إيراد الأسباب الفلسفية والطبيعية في جانب الواحد، وفي الجانب الآخر على السواء من دون تحيز لأحدهما».
وواضح من العبارة الأخيرة أن جاللیو يريد أن يفلت من مقتضى قرار الديوان المقدس.

تدل على ذلك هذه العبارة: «في بطلميوس الأمراض، وعند كوبرنيكوس الأدوية». وخصصت مناقشات اليوم الرابع للبحث في المد والجزر في البحر، وهو يفسره بحركة الأرض، مفندا فكرة تأثير القمر، وكان جاليليو في هذا مخطئا تماما.

وسرعان ما تبين خصوم جاليليو ما في كتاب «الحوار» هذا من خطر، وخصوصا الأبوين اليسوعيين في الكلية الرومانية: جراسِّي وشرينر Grassi & Schreiner فأعلن هذان - على الرغم من أن الكتاب قد مر من الرقابة وأُذن بنشره - أن هذا الكتاب «أسوأ وأخطر على الكنيسة من كتابات لوثر وكلفان». لهذا تقرر (أغسطس سنة ١٦٣٢) منع نشر وتوزيع الكتاب في روما، ثم في ١ أكتوبر ١٦٣٢ طلب من جاليليو المثول أمام المندوب العام للديوان المقدس. واضطر جاليليو إلى الذهاب إلى روما في يناير سنة ١٦٣٣، بعد أن كتب وصيته، فوصل إلى روما في ١٣ فبراير ونزل عند سفير توسكانا في قصر فلورنسه. وفي ١٢ أبريل جرى تحقيق أولي معه أمام الديوان المقدس، مع شيء من الرعاية. وقام ثلاثة من الأحبار هم: ملكيور إنشوفر Melchiorre Inchofer ، وأجستينو أورجيو Agostino Oregio وزكريا بسكواليجو Zaccaria Pasqualigo بفحص كتاب «الحوار» وقرروا أن جاليليو قد خالف التحذير الذي وجه إليه سنة ١٦١٦ وقرار سنة ١٦١٦، وقال أحدهم إنه يَشْتَمُّ من الكتاب أن جاليليو يؤيد نظام كوبرنيكوس. وفي ١٦ يونيو سنة ١٦٣٢، في قصر الكورينالي، أصدر مجلس الديوان المقدس قراره، بعد جلسات عديدة رأس الكثير منها البابا نفسه. ويقضي القرار (١) بأن يعلن جاليليو تبرؤه من نظرياته، (٢) يسجن وفق ما يقضي به المجمع المقدس Sacra Congregazione، (٣) منع كتاب «الحوار» وأي كتاب آخر يكتبه من بعد.

وأُبلغ جاليليو بالقرار في ٢١ يونيو سنة ١٦٣٢. وفي يوم ٢٢ في مركز الديوان المقدس في كنيسة سانتاماريا فوق منيرفا جرت عملية التبرؤ. لكن الحكم بالسجن سرعان ما عدله البابا إلى الاعتقال في حديقة ترينتا دي مونتى (على رابية من روابي روما) Trinita dei Monti أولا، ثم بعد ذلك في مدينة سيينا (بمقاطعة توسكانا)، وأخيرا (في ديسمبر سنة ١٦٣٢) في قرية أرشتري Arcetri.

وقد شاعت إشاعة تقول إن جاليليو، بعد أن تبرأ، تلفت وقال: «ومع ذلك فهي تتحرك» Eppur si muove. ولكن ليس لهذه الإشاعة أي سند تاريخي. والثابت أنه تبرأ من آرائه وأذعن مطيعا ساكنا.

وعلى الرغم مما بُذل من شفاعات ووساطات لم يفرج عن جاليليو حتى آخر عمره إفراجا تاما ولم يصدر أي عفو عنه. ورُفضت كل التماساته للعفو عنه أو الإفراج. وآخر هذه الالتماسات قد أرسله جاليليو إلى البابا ٢٨ أبريل سنة ١٦٣٨، ولكن الديوان المقدس رفض التماسه. وظل قرار تحديد إقامته في بيته ساريا حتى وفاته.

وقد أمضى جاليليو السنوات الثماني الأخيرة من حياته رهين معتقله في فلورنسه، أولا في بيت على رابية سان جورجيو، ثم بعد ذلك في بيت أرشتري Arcetri.

وتوالت عليه المحن بعد ذلك وهو في محبسه في أرشتري: ففقد أولا ابنته العزيزة فرجينيا في ٢ أبريل سنة ١٦٣٤، ثم كف بصره نهائيا في سنة ١٦٣٧، فلم يعد يستطيع – كما قال – أن يبصر «تلك السماء، وذلك العالم، وهذا الكون الذي استطعت بفضل مشاهداتي العجيبة وبراهيني الواضحة أن أكثِّر منه مئات بل وآلاف المرات زيادة على ما رآه العلماء في كل العصور الماضية».

لكن ذلك كله لم يمنعه من مواصلة الكتابة ثم الإملاء. فحرر كتابه الرئيسي بعنوان:

Discorsi & Dimostrazioni matematiche, intorno a due muove scienze, attenenti alla mecanica e i movimenti locali

وكان معدا للطبع منذ سنة ١٦٣٤، وبعد محاولات عديدة لطبعه، انتهز فرصة زيارة الناشر الهولندي الشهير L. Elzeviro له في محبسه بأرشتري وأعطاه أصل الكتاب لطبعه في مدينة ليدن Leiden في هولندا، وتم ذلك في سنة ١٦٣٨.

وأملى على تلميذه فنشنتسو فيفياني Vincenzo Viviani – وكان يقيم إلى جواره منذ نوفمبر سنة ١٦٣٨ – بحثا في البرهنة على الفرض المتعلق بالحركة على السطوح المائلة. وكذلك أملى على إيفانجلستا تورتشلي Evangelista Torricelli في أكتوبر سنة ١٦٤١ حوار اليوم الخامس عن تعريفات ونظريات إقليدس (المقالة الخامسة).

وتوفي جاليليو جاليلاي في أرشتري في اليوم الثامن من يناير سنة ١٦٤٢، بعد إصابته بالحمى البطيئة.

ويمكن تلخيص أهم اكتشافات جاليليو العلمية فيما يلي:

١ – قام بتحسين جهاز هولندي الصنع تستعمل فيه عدسات في أنبوبة، وكان عن ذلك التلسكوب (المِقْراب) الذي بفضله أمكن تقوية رؤية العين إلى درجة مكنت من رصد النجوم البعيدة.

٢ – اكتشف مبدأ القصور الذاتي في الحركة، وإن كان ذلك ينسب عادة إلى ديكارت.

٣ – استطاع بواسطة مقرابه أن يكتشف توابع المشتري، وأن يرسم لوحات لدوراتها.

٤ – لاحظ البقع الشمسية ودرسها في ذات الوقت الذي درسها فيه ج. فابرتسيوس سنة ١٦١١.

٥ – اكتشف أن المجرة مؤلفة من مجموعة من النجوم البعيدة.

٦ – اكتشف أوجه كوكب الزهرة.

٧ – أدى دورا كبيرا جدا في إيجاد علم الميكانيكا بوصفها علما، وبهذا مهد الطريق لنيوتن.

٨ – أسهم إسهاما كبيرا في تطبيق الرياضيات على الفيزياء، ورأى بثاقب بصره «أن الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية» على حد تعبيره الشهير.

٩ – وكان من أكبر دعاة المنهج التجريبي في البحث العلمي(*).

* * *

(*) هناك ثبت بمؤلفات جاليليو وما كتب عنه من أبحاث، يستغرق الفترة من 1586 حتى 1895 وفيه 2108 عناوين بحث، وقد قام به أ. كارلي و أ. فافرو: A. Carli e A. Favaro: Bibliografia Galileiana. Rome, 1896.

وراجع عن جاليليو:

A. Banfi: Galileo Galilei–Finenze, 1931;

L. Olschki: Galileo und seine Zeit. Halle, 1927;

Stillman Drake: Discoveries and opinions of Galileo. London. 1955.

- ٢ -

جاليليو في مسرحية برشت

هذا هو جاليليو كما عرفه التاريخ. ومن يقرأ مسرحية برشت هذه يجد أن المشَابِه كثيرة جدا بين أحداث حياة جاليليو وبين أحداث المسرحية، لا تكاد في خطوطها العامة أن تخرج عنها. وحتى أسماء الشخصيات معظمها أسماء تاريخية، والأدوار التي مارستها متكافئة في كلا المجالين: التاريخ والمسرحية:

١ - فرجينيا، ابنة جاليليو، هي: الابنة التي آثرها أبوها بالحب، وآثرته بالحب والإخلاص. وهي هي: المرأة المتدينة، حتى أنها تاريخيا دخلت الرهبانية في سن السادسة عشرة. والخلاف هو في قصة خطبتها إلى لودفكو مرسيلي: فهذه الحكاية اخترعها برشت، كما أنه لم يُشِرّ إلى أنها ترهبت.

٢ - والكردينالان بلرمين وبربريني - والأخير أصبح البابا أربان الثامن - دورهما في المسرحية هو دورهما في الواقع التاريخي، لم يغير برشت فيه شيئا.

فإن بلرمين (أو بلرمينو Bellarmino كان كردينالا، ومطرانا لكبوا Capua، وعين في سنة ١٥٧٦ في الكلية الرومانية Collegio Romano أستاذا للمسائل الجدلية، وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٥٨٨. ثم عاد إلى الكلية الرومانية في ١٥٩٠ في منصب المرشد الروحي، وعين مديرا لها في ديسمبر سنة ١٥٩٢. كما عين مستشارا للديوان المقدس، وبهذه الصفة اشترك في قضية جوردانو برونو، الفيلسوف الذي قُضِي بإحراقه. ومنح لقب كردينال في ٣ مارس سنة ١٥٩٩، واشترك بهذه الصفة في كل المجامع المقدسة. واشترك في كل القضايا الدينية الكبرى التي أثيرت في ذلك العصر: قضية حرمان البندقية (١٦٠٦)، قضية النزاع الأنجلكاني والجاليكاني فيما يختص بسلطة البابا في الأمور الدنيوية (من سنة ١٦٠٧ إلى سنة ١٦١٢)، كما اشترك في قضية جاليليو (١٦١٥ - ١٦١٦)، وتوفي في ١٧ سبتمبر سنة ١٦٢١.

أما بربريني فهو أحد كبار رجالات أسرة بربريني المشهورة في تاريخ إيطاليا في القرن السابع عشر. والمقصود في المسرحية هو أربانو الثامن البابا، واسمه

الأصلي مافيو بربريني Maffeo Barberini الابن الخامس لأنطونيو بربريني. ولد في فلورنسه في ٥ أبريل سنة ١٥٨٨، واعتلى كرسي البابوية في ١ أغسطس سنة ١٦٢٣ واتخذ اسم «أربانو الثامن»، في أثناء بابويته عني بإصلاح أحوال الكهنوت الروماني والطرق الرهبانية. وزاد من سلطة محاكم التفتيش، فعمل على تأجيج حركة اضطهاد المفكرين ورجال الدين ذوي الآراء الحرة (دي دومينيس، مطران اسبالاتو، وتوماسو كمبانلا، وكريمونيني Cremonini).

وأهم القضايا التي أثيرت في عهده قضية جالليو، على الرغم من أنه كان معجبا بجالليو، عطوفا عليه، خصوصا أنه حصل شطرا من الرياضيات والثقافة الإنسانية وخاض غمار الحروب الدينية العديدة التي أثيرت في أوروبا في عصره. وتوفي في ٩ يوليو سنة ١٦٤٤.

* * *

شخصيات المسرحية

جاالليو جاليلاي	Galileo Glailei
أندريا سارتي	Andrea Sarti
السيدة سارتي: أم أندريا، وتقوم بخدمة جاالليو	Sarti
لودفكو مرسيلي: شاب ثري	Ludovico Marsili
السيد بريولي: مدير جامعة بادوا	Priuli
سجريدو: صديق لجاالليو	Sagredo
فرجينيا: بنت جاالليو	Virginia
فدرتسوني: صاقل عدسات، ومساعد جاالليو	Federzoni
الدوج	Doge
أعضاء المجلس	
كوزيمو دي مدتشي: الدوق الأكبر لفيرنتسه	Cosimo di Medici
رئيس البلاط	
اللاهوتي	
الفيلسوف	
الرياضي	
كبرى الوصيفتين	
خادم للدوق الأكبر	
راهبتان	
جنديان	
امرأة عجوز	
عالمان	
راهبان	

فلكيان	
راهب نحيف جدا	
الكردينال العجوز	
الأب كرستوفر كلافيوس: فلكي	Christopher Clavius
الراهب الصغير	
الكردينال صاحب التفتيش	
الكردينال بربريني: الذي أصبح	Kardinal Barberini
بابا باسم أوربان الثامن	
الكردينال بلرمين	Kardinal Bellarmin
كاتبان كهنوتيان	
فتاتان	
فلبو موشيوس: عالم	Filippo Mucius
السيد جافوني: مدير جامعة بيزا	Gaffone
مطرب جوال	
زوجته	
فاني: رئيس مصنع صهر الحديد	Vanni
محضر	
موظف كبير	
شخص	
راهب	
فلاح	
حارس حدود	
كاتب	
رجال، نساء، أطفال.	

(١)

جاlليو جاليلاي، أستاذ الرياضيات في بادوا، يريد أن يبرهن على صحة النظام الجديد للعالم كما تصوره كوبرنيكوس.

في عام ألف وستمائة وتسعة
شع نور العلم من بيت صغير في بادوا
إذ جاlليو بالحسابات توصل:
ليست الشمس، بل الأرض تدور.

(جاlليو في مكتبه المتواضع في بادوا. الصباح. صبي، هو أندريا، ابن ربة البيت، يحضر كوبا من اللبن وقطعة من الخبز الأبيض)

جاlليو : (وكان يغسل نصف جسمه الأعلى، مهتزا وفي طرب) ضع اللبن على المنضدة، لكن لا تغلق أي كتاب.

أندريا : أمي تقول إنه لا بد من دفع المبالغ المستحقة للبّان، وإلا، يا سيدي جاlليو، فإنه سيتخذ طريقا دائريا ليتجنب منزلنا.

جاlليو : يجب أن يقال، يا أندريا، إنه سيرسم قوس دائرة.

أندريا : كما تشاء. لكن إن لم ندفع، فإنه سيتجنبنا راسما قوس دائرة، يا سيدي جاlليو.

جاlليو : والمحضر، السيد كمبيوني، سينقض علينا في خط مستقيم. فأي طريق سيختار بين نقطتين؟

أندريا : (بابتسامة عريضة) أقصر طريق!

جاlليو : حسن. عندي شيء لك. اذهب وانظر وراء الجداول الفلكية.

(من وراء الجداول الفلكية، يُخْرِج أندريا نموذجا خشبيا يمثل نظام بطلميوس)

أندريا : ما هذا؟

جاlليو : هذا أسطرلاب، وهو يبين كيف تدور الكواكب حول الأرض،

تبعا لرأي الأقدمين.

أندريا : كيف تسير؟

جالليو : لننظر. أول شيء هو: الوصف.

أندريا : في الوسط حجر صغير.

جالليو : إنه الأرض.

أندريا : وحواليه أغشية متداخل بعضها في بعض.

جالليو : كم عددها؟

أندريا : ثمانية.

جالليو : هذه هي أفلاك البلّور.

أندريا : وعلى الأغشية كرات مثبتة.

جالليو : هذه هي النجوم.

أندريا : ثم هناك أمثال الأشرطة، عليها كتابة.

جالليو : أي كتابة؟

أندريا : أسماء النجوم.

جالليو : مثلا؟

أندريا : الكرة السفلى مكتوب عليها: القمر. وفوقها الشمس.

جالليو : والآن، حرّك الشمس

أندريا : (وهو يدير الأغشية) هذا جميل. لكن، كأننا في صندوق.

جالليو : (وهو يجفف نفسه) نعم، وأنا أيضا كان لديّ هذا الشعور حين رأيت هذا الشيء لأول مرة. بعضنا لديه هذا الشعور. (يلقي إلى أندريا بالفوطة، ليمسح له بها ظهره) جدران، أغشية، وسكون! طوال عشرين قرنا اعتقدت الإنسانية أن الشمس وجميع الأجرام السماوية تدور حول الأرض. والبابا بكردينالاته، والأمراء والأساتذة، والملاحون والتجار، وبائعات السمك، والتلاميذ. الجميع اعتقدوا أنهم ساكنون

مســتقرون في كرة البلور هذه. لكــن، هذه المرة، يا أندريا، سنلقي بأنفســنا في البحر الواسع لأن الزمن القديم ولّى، وهــا هو ذا عصر جديــد. ويخيّل إلى المرء أن الإنســانية كانت، منذ مائة سنة، تنتظر شيئا.

المدن ضيقة، والعقول كذلك. الخرافات، والطاعون. ولكن فــي هذه المرة نحن نقول: مادامــت الأمور هكذا، فإنها لن تستمر هكذا. لأن كل شيء يتحرك، يا صديقي الصغير.

ويلــذ لي أن أتصور أن هــذا قد بدأ بالســفن. منذ أقدم الأزمنة، لم تكن الســفن تســير إلا على طول الشــواطئ، وفجأة غادرتها، وقذفت بنفسها في المحيطات.

وعلى قارتنا العتيقة نشــأت شــائعة فجأة، تقول إنه توجد قــارات جديدة. منــذ أن ذهبت إليها ســفننا، ترددت هذه الشــائعة في القارات، فكانت هناك ضحكة عالية: ذلك أن المحيط الشاســع الذي كان النــاس يخافونه صار يبدو لهم بعد ذلك، كأنه بركة من الماء. كلّ يوم اكتشافٌ جديد.

لقد تم اكتشــاف الكثير، لكن لايزال هناك ما سيكتشــف بعد، مما سيكون من عمل الأجيال الجديدة.

في سيينا Siena، لما كنت صغيرا، رأيت جماعة من البنائين يرتبــون الحبال بطريقة جديدة عمليــة، بدلا من الطريقة القديمة لنقل كتل الجرانيت، بعد مناقشة استغرقت خمس دقائق. وفي الحال فهمت: لقد ولّى الزمان القديم، وها هو ذا عصر جديد. وعما قليل ستعرف الإنسانية الحقيقة عن مسكنها، هذا الجِرْم السماوي الذي تسكنه. وما هو مكتوب في الكتب القديمة لَم يعد يكفيها.

فهنــاك حيث انتقــش الإيمان منذ ألف عــام، انتقش الآن الشــك. العالم كله يقول: نعم، هذا مكتوب في الكتب، لكن لننظر نحن بأنفسنا. والحقائق التي كانت مُسَلّمة بكل جد،

صارت الآن هدفا للنقد، وما لم يوضع قط موضع الشــك، قد صار الآن هدفا للشك.

وهكــذا هبّت ريــح عاتية زعزعت كل شـــيء، ورفعت حتى الســـراويل المزركشـــة بالذهب التي يلبســـها الأمراء وكبار رجال الدين وصار من الممكن أن نرى تحت الرُّكَب السمينة أو الهزيلة، رُكَبا مماثلة لرُكَبنا. لقد تبين في نهاية الأمر أن السماوات خاوية، وانطلقت عن ذلك ضحكة عالية.

لكن مياه الأرض تدير المناســج الجديدة، وفي ورش الموانى ومصانع الحبال والشراعات تشتغل خمسمائة يد في وقت واحد بنظام جديد.

وأنا أتنبأ بأننا ســنعيش حتى نســمع النــاس يتكلمون في الأسواق عن علم الفلك، وحتى أولاد بائعات السمك الذين ســيتدافعون إلى المدارس. لأن هــؤلاء الناس الذين تراهم في مدننا متشوقون للتغيير، وسيشعرون بالرضا والارتياح حين يــرون أن علمَ فلكٍ جديدا ســيجعل الأرض تتحرك. لقد كان يقال دائما إن النجوم مثبتة في قبة من البلّور حتى تســقط. أما الآن فقد تحلينا بالشجاعة، وسندعها تتجول في الفضاء، من دون أن تكون مُثَبّتة في شيء، وها هي ذي تســبح في الفضاء الفســيح، مثل ســفننا في البحار وهي تجول من دون مراس.

والأرض تدور مبتهجة حول الشــمس، وبائعات الســمك، والتجــار، والأمراء، والكرادلة، والبابا نفســه – كل الناس يدورون معها.

أمــا الكون فَقَدْ فَقَدَ مركزه في ليلــة واحدة، وفي الصباح صارت له مراكز لا حصر لها حتى صار كل شـــيء مركزا، ولا مركزا، إذا كثرت المواضع.

وســـفننا تنطلق إلى الآفاق البعيدة، والنجوم تدور إلى غير

نهايــة في المــدارات الكبرى في الفضـــاء، وحتى في لعبة الشطرنج تجول الطوابى في كل الخانات.

ماذا قال الشاعر؟ «يا له فجر جديد...»

أندريا : «يا له فجر جديد!
يا لنسم الريح يأتي
الآن من شط جديد!»

ثم، عليك أن تشرب هذا اللبن، فعمّا قليل ستبدأ الزيارات.

جالليو : ما قلته لك، هل فهمته منذ أمس مساء؟

أندريا : ماذا؟ حكاية كبَّرنيك وأشيائه التي تدور؟

جالليو : نعم!

أندريا : لا. ولماذا تريد منـــي أن أفهمها؟ إنها صعبة جدا، ولن أبلغ من العمر الحادية عشرة إلا في أكتوبر.

جالليو : مـــا يهمني أيضا هو أن تفهم أنت كذلـــك. وإذا كنت تراني أشـــتغل وبدلا من دفع المبالغ المستحقة لبائع اللبن، أشتري هذه الكتب الغالية الثمن، فذلك من أجل أن يفهم الناس.

أندريا : لكني أرى بوضوح أن الشـــمس في المساء تتوقف في مكان غيـــر مكانها في الصبـــاح. فليس من الممكـــن إذن أنها لا تتحرك. مستحيل.

جالليو : هكـــذا، وماذا ترى؟ أنت لا ترى شـــيئا أبـــدا، أنت تحملق بعينيك فقط. والحملقة ليست هي الرؤية. (يضع في وسط الغرفة الحامل الحديدي الذي يحمل الحوض) لنفترض أن هذا هو الشـــمس. اقعد (أندريا يقعد على أحد الكرسيين وجالليو يقف خلفه) أين الشمس: عن يمين؟ عن يسار؟

أندريا : عن يسار.

جالليو : وكيف تنتقل إلى اليمين؟

أندريا : إذا جعلتها تنتقل إلى اليمين، طبعا.

جاлليو : فقط فـــي هذه الحالة؟ (يرفعه مع الكرســـي ويجعله يدور نصف دورة). أين الشمس، الآن؟

أندريا : على اليمين.

جاليليو : وهل تحركت؟

أندريا : لا، طبعا.

جاليليو : ومن الذي تحرك؟

أندريا : أنا.

جاليليو : (صائحا) لا، يا مغفل! الكرسي!

أندريا : وأنا معه!

جاليليو : بالتأكيد. الكرسي هو الأرض، وأنت جالس فوقه.

السيدة سارتي : (تدخل لترتيب السرير، وقد لاحظت المنظر) ماذا تفعل مع ولدي، يا سيد جاليليو؟

جاليليو : أعلمه كيف ينظر، يا سارتي.

السيدة سارتي : وأنت تديره في الغرفة؟

أندريا : لا شأن لك بهذا، يا أماه. فهذا أمر لا تفهمينه.

السيدة سارتي : آه، هكــذا؟ وأنت، أنت تفهمه؟ هنا شـــاب يريد تلقي دروس. يلبس ثيابا فاخرة، ومعـــه خطاب توصية. (تعطيه الخطاب) ســـتفيد أندريا كثيرا، إلى حد أنه ســـينتهي به الأمر إلى أن يقـــول إن ٢ × ٢= ٥. إنـــه يخلط في كل مـــا تقوله له. أمس فقط أراد أن يبرهن لي على أن الأرض تدور حول الشـــمس. ويعتقـــد اعتقادا جازما أن رجلا اســـمه كبّرنيك قد بيّن هذا بالحسابات.

أندريا : يا ســـيد جاليليو، ألم يبرهن على هـــذا كبّرنيك؟ قل لها أنت بنفسك.

السيدة سارتي : ماذا؟ هل تقول له حقا مثل هذه الحماقات؟ حتى يذيع هذا في المدرسة، وبعد هذا يأتي القساوسة إليّ فيخبرونني أن

ابني يهذي بخرافات؟ ألا تخجل، يا سيد جالليو؟

جالليو : (وهو يتناول طعام الإفطار) يا سيدة سارتي! استنادا إلى أبحاثنا وبعد مناقشات حامية قمنا، أندريا وأنا، باكتشافات لا نستطيع أن نستمر في إخفائها عن الناس. لقد بدأ عصر جديد، عصر عظيم، ما أمتع العيش فيه!

السيدة سارتي : هكذا؟ وأرجو أن نتمكن من دفع المبالغ المستحقة علينا لبائع اللبن في عصرك الجديد هذا، يا سيد جالليو. وأرجوك ألا تردّ الشاب كما فعلت مع الآخرين. إني أفكر في دفع ثمن اللبن. (تخرج)

جالليو : (ضاحكا) دعيني على الأقل طوال المدة التي فيها أشربه. (مخاطبا أندريا) إذن فهمت بالأمس بعض الأشياء.

أندريا : لقد قلت هذا لها لأبهرها. ولكن المسألة ليست بهذه البساطة. الكرسي الذي كنت أجلس عليه، كل ما فعلته هو أنك أدرته حول نفسه أفقيا، وليس هكذا. (يقوم بحركة الترجح بذراعه) وإلا لكُنْت سَقَطت. هذه هي الحقيقة. فلماذا لم تحرك الكرسي ورأسي إلى أسفل؟ ذلك أن هذا سيكون برهانا على أنني سأسقط من على الأرض إذا تحركت بهذه الكيفية. لقد وَقَعْتَ في مَأْزِق.

جالليو : لكني برهنت لك...

أندريا : نعم، لكن في الليلة الماضية فكرت فوجدت أنه في هذه الحالة إذا دارت الأرض هكذا فإن رأسي في الليل سيكون في أسفل. وهذه حقيقة.

جالليو : (وقد أخذ تفاحة من فوق المنضدة) لنفرض أن هذه هي الأرض.

أندريا : لا تضرب أمثلة من هذا النوع، يا سيد جالليو. فبها ستستطيع التخلص باستمرار.

جالليو : (معيدا التفاحة إلى مكانها) ليكن.

أندريا : بواسطة الأمثلة يستطيع المرء التخلص، مادام يحسن

ضربها. والفارق هو أنني أنا لا أستطيع أن أجر أمي على كرسي، كما تفعل أنت معي. وهكذا ترى أن المثل رديء. ثم ماذا يحدث، إذا كانت تفاحتك هذه هي الأرض؟ لا شيء يحدث أبدا.

جالليو : (ضاحكا) يظهر أنه لا يهمك أن تعرف.

أندريا : أَمْسك بالتفاحة مرة أخرى. كيف يتأتى ألا تكون رأسي إلى أسفل في أثناء الليل؟

جالليو : لنفرض إذن أن هذه هي الأرض، وأنك أنت هناك (يغرز في التفاحة شظية خشب أخذها من حطبة) والآن تدور الأرض.

أندريا : والآن رأسي منكوس.

جالليو : كيف؟ انظر جيدا. أين الرأس؟

أندريا : (وهو يشير إلى نقطة في التفاحة) هناك، في أسفل.

جالليو : كيف؟ (يدير التفاحة في الاتجاه العكسي) أليس في المكان نفسه؟ أوليست القدمان في أسفل؟ أو هل أنا أقيمك منتصبا حينما أديرك، هكذا؟

(يسحب شظية الخشب من التفاحة ويديرها)

أندريا : لا. لكن لماذا لا أحسّ بأي تقلب؟

جالليو : لأنك تدور مع الأرض. أنت، والهواء الذي فوقك، وكل من على الكرة.

أندريا : ولكن لماذا يخيّل إلى المرء أن الشمس هي التي تدور؟

جالليو : (وهو يدير التفاحة من جديد بواسطة شظية الخشب المغروسة فيها) إذن أنت ترى الأرض تحتك، وهي كما هي، دائما في أسفل، وبالنسبة إليك يبدو أنها لا تتحرك. لكن، انظر الآن من فوقك الآن، المصباح فوق رأسك، ولكن حينما أدرت التفاحة فما هو الشيء الذي فوق الرأس، وبالتالي هو في أعلى؟

أندريا : (مصاحبا الحركة) الموقد.

جالليو : والمصباح، أين هو؟

أندريا : هذا عظيم، هذا سيدهشها.

(يدخل لودفكو مرسيلي، وهو شاب من أسرة موسرة)

جالليو : هذا البيت مثل برج الحمام.

لودفكو : صباح الخير يا سيدي. أنا اسمي لودفكو مرسيلي.

جالليو : (وهو يتفحص خطاب التّوْصِية) : كُنْتَ في هولندا؟

لودفكو : سمعت عنك كثيرا يا سيد جالليو.

جالليو : لأسرتك أرض في كمبانيا.

لودفكو : تمنت أمي عليّ أن أحتك بالدنيا، ابتغاء رؤية الأشياء الجديدة... الخ.

جالليو : وفي هولندا سمعتهم يقولون إن الجديد في إيطاليا مثلا هو أنا؟

لودفكو : ولما كانت أمي تريد مني أن أحتك قليلا بالعلوم.

جالليو : دروس خصوصية: عشرون اسكوده في الشهر.

لودفكو : حسن جدا يا سيدي.

جالليو : بماذا تهتم؟

لودفكو : بالخيل.

جالليو : هيه! هيه!

لودفكو : رَأسي لم يخلق للعلوم، يا سيدي جالليو.

جالليو : هيه! هيه! في هذه الحالة تدفع خمسة عشر اسكوده.

لودفكو : حسن جدا، يا سيد جالليو.

جالليو : لا بد من أن يكون درسك في الصباح الباكر. وستكون أنت الضحية، يا أندريا. طبعا الدرس الخاص بك سيُلغى. وأنت فاهم، لأنك لا تدفع.

أندريا : حسن، أنا ذاهب. هل أستطيع أخذ التفاحة؟

جالليو	:	نعم.
		(أندريا يخرج)
لودفكو	:	معي يجب عليك أن تكون صبورا. الصعوبة الكبرى هي أنه في العلوم لا شــيء يجري كما يشــير به الفهم العليم. خذ مثــلا تلك الأنبوبة الغريبة التي تباع في أمســتردام. لقد فحصتها بدقة. يدٌ منَ الجلد الأخضر وعدســتان، واحدة هكذا (يده ترســم عدســة مقعرة)، والأخــرى هكذا (يده ترسم عدســة محدبة). ويقال إن الواحدة تكبِّر، والأخرى تصغِّر. وأي إنســان عاقل يتخيل أنهما تتعادلان. كلا. فمن خلال هذا الجهاز يرى الشيء مكبرا خمس مرات. هذا هو العلم الذي تريده، يا سيدي.
جالليو	:	أي شيء يرى مكبرا خمس مرات؟
لودفكو	:	أبراج نواقيس، حمام. كل ما هو بعيد.
جالليو	:	هل رأيتها أنت بنفسك هذه الأبراج المكبرة؟
لودفكو	:	بالتأكيد، يا سيدي.
جالليو	:	والأنبوبة فيها عدستان؟ (يخطط رسما «كروكيا» على ورقة) هكذا؟ (لودفكو يوافق بهز رأسه) متى ظهر هذا الاختراع؟
لودفكو	:	قبيل ســفري من هولندا بأيام قليلة، على كل حال لم يظهر في السوق إلا منذ وقت قصير.
جالليو	:	(بشــيء من التودد) ولماذا علــم الطبيعة بالذات؟ لماذا لا تدرس تربية الخيل؟ (السيدة سارتي تدخل من دون أن يراها جالليو)
لودفكو	:	أمّي تقــول إن قليلا من العلم لا غنى عنه.. في هذه الأيام الناس جميعا يهتمون بالعلم.
جالليو	:	يمكنك أن تتعلم لغة من اللغات القديمة، أو اللاهوت: فهذا أســهل عليك (وقد تنبه إلى وجود السيدة سارتي) حسن، تعال صباح الثلاثاء (لودفكو يذهب). لا تتطلعي فيّ هكذا. فقد وافقت على التدريس له.

السيدة سارتي : لأنــك أَبْصَرْتني في الوقــت المناســب. إن مدير الجامعة ينتظرك في الخارج.

جاليليو : دعيه يدخل. إنه مهم. ربما أحصل على خمسمائة اسكوده، وفي هــذه الحالة لن أكون في حاجة إلى إعطاء دروس خصوصية. (السـيدة سـارتي تدعو المدير إلى الدخول. ارتدى جاليليو كل ثيابــه، وهو يكتب بعض الأرقام علــى قطعة من الورق) صباح الخير. أقرضني نصف اسكوده. (يعطي السيدة سارتي قطعة النقود التي اســتخرجها مديــر الجامعة من حافظة نقوده) يا ســيدتي ســارتي، ابعثي أندريا إلى صاقل العدسات لإحضار عدستين. المقاييس هناك، على هذه الورقة.

(السيدة سارتي تخرج ومعها الورقة)

المدير : أتيــت للتحدث معك بشــأن طلبك زيــادة مرتبك إلى ألف اســكوده. لكن يؤسفني ألا أعطي الرأي بالموافقة للجامعة. أنت تعلم جيدا أن محاضرات الرياضيات لا تجتذب العدد الكبير إلى الجامعة. هذه واقعة حقيقية. ذلك أن الرياضيات صناعة لا توفر الكســب الكافي لصاحبها. وليس ذلك لأن الجمهوريــة لا تقيم لها وزنا كبيرا، فإن الرياضيات وإن لم تكن لا غنى عنها مثل الفلســفة، ولا مفيدة مثل اللاهوت، فإنها تحقق لدارسها لَذّات لاحدّ لها.

جاليليو : (مكبــا علــى أوراقه) يا عزيزي، أنا لا أســتطيع أن أعيش بخمسمائة اسكوده.

المدير : لكن، يا سيد جاليليو. أنت تلقي درسين في الأسبوع بمعدل ســاعتين لكل درس. وشــهرتك النادرة تخوّل لك الحصول على أي عدد من التلاميذ القادرين على دفع أثمان الدروس الخصوصية. ألا تلقي دروسا خصوصية؟

جاليليو : يــا ســيدي العزيز، عنــدي الكثيــر جدا. إعطــاء دروس خصوصية، دائما دروس، وأين إذن ســأجد الوقت الكافي للاطلاع والإفادة؟ يا إلهي! لســت كواحد من هؤلاء السادة

الأساتذة في كلية الفلسفة، هؤلاء الأذكياء، أنا غبيّ. لا أفهم شيئًا في أي شـيء. ولهذا فإنني مضطر إلى سد الثغرات في معلوماتي لكن أين أجد الوقت لذلك؟ وأين أجد الوقت للقيام بالأبحاث؟ أنا يا سـيدي يحتاج علمي إلى مزيد من العلم. فيما يتعلق بالمشـكلة الكبرى ليـس لدينا حتى الآن غيـر فروض. وما نطالب به أنفسـنا هو البراهين، فكيف السـبيل إلى أن أتقدم في هذا المجـال، إذا كنت مضطرا، من أجل لقمة العيش، إلى أن أكرر لأي غبيّ عنده الوسـيلة لدفع الثمن، أن المتوازيات تلتقي عند النهاية؟

المدير : ينبغـي ألا تنسـى أنـه إذا كانت جمهوريتنـا ربما لا تدفع بالسـخاء نفسـه الذي يدفعه بعـض الأمـراء، فإنها في مقابـل ذلك تضمن حرية البحـث. ونحن في جامعة بادوا نسمح حتى للبروتسـتانت بالحضور كمستمعين! ونعطيهم الدكتوراه. خذ مثلا الأسـتاذ كريمونيني Cremonini: ليس فقط نحن لم نسلمه لمحاكم التفتيش لما أن برهنوا لنا، أقول برهنوا يا سـيد جاليليو، على أنه كان يلقـي بآراء مخالفة للإيمـان، بل ورفعنا مرتبه، حتى فـي هولندا يعرفون عنا ذلـك. البندقية هي الجمهورية التـي لا قيمة فيها لمحاكم التفتيش. ولهذا الأمر قيمته بالنسـبة إليـك، فأنت عالم فلـك، وبالتالي ميـدان تخصصك من الميادين التي فيها مذهب الكنيسة لا يعامل بالاحترام الواجب.

جاليليو : والأسـتاذ جوردانو برونو Giordano Bruno؟ لقد كان هنا، وأنتم الذين أسلمتموه إلى روما. لا لشيء إلا لأنه نشر آراء كوبرنيكوس.

المدير : ليس لأنه نشـر آراء كوبرنيكوس هـذا، وهي مع ذلك آراء فاسـدة، ولكن لأنه لم يكن من أهالي البندقية، ولم يشغل أي وظيفـة هنا. فدع إذن مـن أحرقوه في روما حيثُ هم. ولا أكتمك أنه على الرغم من الحرية التي تسود هنا، فمن

الأفضل لــك ألا تذكر عاليا مثل هذا الاســم، الذي حلت عليه اللعنة الصريحة للكنيسة. ولا هنا. لا. ولاهنا.

جالليو : حمايتكم لحرية الفكر هــذه أمر جميل جدا. وبفضل هذه الحجة، وهــي أن محاكم التفتيش تسـيطر فــي الأماكن الأخرى وتحكــم بالإحراق، صار عندكم أســاتذة أفاضل. أنتم تحمون من محاكــم التفتيش، لكنكم تدفعون أقل مما يدفع الآخرون، وبهذا توفرون.

المدير : هــذا إفك، إفك فاحش! ومــاذا يفيدك أن يكون عندك كل الوقــت للبحث، إذا كان أي راهب جاهل من رجال التفتيش يســتطيع أن يمنع ويصادر أفكارك؟ لا ورد بلا شــوك، ولا أمير بدون رهبان يا سيد جاللیو.

جاللیو : وفيم تفيد حرية البحــث، إذا أعوز الفراغ للقيام بالبحث؟ وماذا يصنع بالنتائج؟ ألا تســتطيع أن تُري هؤلاء الســادة، أعضــاء المجلس الأعلى، هــذه الأبحــاث المتعلقة بقوانين ســقوط الأجســام (يريه إضبارة مــن الأوراق المخطوطة) وتسألهم: ألا تساوي هذه مزيدا من الاسكودات القليلة؟

المدير : هذا يساوي الكثير جدا، يا سيد جاللیو.

جاللیو : لا، ليس الكثير جدا، بل فقط خمســمائه اسكوده زيادةً، يا سيدي العزيز.

المدير : يساوي اسكودات ما يَدرّ اســكودات. إذا كنت تريد نقودا، فعليــك أن ترينا شــيئا آخر. أما فيما يتعلــق بالعلم الذي تريــد بيعه، فينبغي ألا تطلب عنــه أكثر مما يَدِرّه على من يشــتريه. خذ مثلا الفلســفة التي يبيعها الأستاذ كولومب في فيرنتســه: إنها تدر على الأمير عشــرة آلاف اسكوده علــى الأقل في العام الواحد. صحيح أن قوانينك الخاصة بسقوط الأجسام قد أثارت ضجة، وفي براج وباريس الكل يصفقون لك بحماســة. لكن هــؤلاء المصفقين لا يدفعون

لجامعة بادوا شيئا نظير ما تكلفها أنت. مصيبتك، يا سيد جالليو، هي في تخصصك.

جالليو : فاهم: السوق الحرة، والبحث الحر. وبالجملة، السوق الحرة للبحث، أليس كذلك؟

المدير : أوه، يا سيد جالليو! كيف تتصور الأمور! اسمح لي بأن أقول لك إنني لا أفهم تماما أجوبتك الساخرة هذه. ولا يتضح لي ما العيب في ازدهار تجارة جمهوريتنا. ولكني، وأنا مدير للجامعة منذ سنوات طويلة، لا أسمح لنفسي بالكلام بهذه اللهجة عن البحث، هذه اللهجة – واسمح لي بأن أقولها – غير اللائقة. (جالليو يلقي نظرة مضطربة على مكتبه) فكّر فيما يجري في سائر أنحاء إيطاليا، فكّر في الاستبداد الذي يذلّ العلوم ويبكيها في كثير من المواطن. هناك يؤخذ جلد المجلدات العتيقة لتُصنع منه سيور للسياط. هناك ما يجب معرفته ليس هو كيف يسقط الحجر، ولكن ماذا قال أرسطو في هذا. والعيون فائدتها الوحيدة هي للقراءة. وفيم تفيد القوانين الجديدة الخاصة بسقوط الأجسام، إذا كان الشيء الوحيد الذي يهم هو القوانين الخاصة بفن الركوع والانحناء؟ قارن بهذا كله السرور الذي لا حد له الذي به تستقبل جمهوريتنا آراءك، مهما تكن جريئة. لا أحد يراقبك، ولا أحد يضطهدك. وتجارنا – وهم يعرفون، في المنافسة مع فيرنتسه، أهمية تحسين نوع المنسوجات – يستمعون إليك باهتمام حين تعلن قائلا: «حسنوا علم الطبيعة»، ويعرفون كم يدين علم الطبيعة لهذا التحسين لوسائل النسيج؟ إن البارزين من مواطنينا يهتمون بأبحاثك ويزورونك، ويرحبون بالاطلاع على اكتشافاتك، مع أن وقتهم ثمين جدا. لا تحتقر التجارة، يا سيد جالليو. لا أحد يسمح هنا بالتشويش عليك في عملك، أو أن يخلق لك الصعوبات غير المختصين. اعترف يا سيد جالليو بأنك تستطيع العمل هاهنا.

جاليليو : (يائسا) نعم.

المدير : وفيمـا يتعلـق بالجانب المـادي، عليك أن تبتكر لنا شـيئا بديعا مثل فرجار التناسـب الذي اخترعته، والذي بفضله يمكن الإنسـان – مـن دون أن تكون لديـه أدنى فكرة عن الرياضيات – (يعد على أصابعه) أن يرسـم منحنيات، وأن يحسب الفوائد المركبة لرأس المال بنسخ مستويات مساحية على مقياس رسـم أصغر أو أكبـر، وأن يحدد وزن دانات المدافع.

جاليليو : هذه لعبة أطفال.

المدير : اختراعٌ أدهش كبار المواطنين، ودرّ نقدا سائلا، أتسميه لعبة أطفال؟! ولقد قيل لي إنه بهذه الآلة نفسـها استطاع حتى الجنرال استفانو جريتيّ أن يستخرج الجذور التربيعية!

جاليليو : معجـزة، الحقيقة يابريولـي Priuli أنـك جعلتني أفكر. بريولي، ربما عندي لك شـيء من النـوع الذي تتكلم عنه. (يأخذ من فوق المنضدة الورقة المرسوم فيها رسم كروكي)

المدير : صحيح؟ هذا سـيرتب كل شيء (ينهض واقفا) نحن نعلم، يا سـيد جاليليو، أنك عقل ممتـاز. ممتاز ولكنه غير راض أبدا، إذا جاز لي هذا التعبير.

جاليليو : نعـم أنا غير راض أبدا، ولو فهمت الأمور، لوجدت أن عدم الرضا هذا يستحق زيادة في المرتب. لأني غير راض... عن نفسـي. لكن بدلا من هذا، تفعلون كل المطلوب من أجل أن يتحول عدم رضاي ضدكم. وأنا أعترف، يا سادة البندقية، بأنني لست ساخطا على أنني واحد في ترسانتكم الشهيرة وفي ورشـكم البحرية ومصانع المدافـع. لكنكم لا تتركون لـي الوقت اللازم الكافي لعمل التأمل الذي يلحّ عليّ دائما ويجعلني أتقدم في تخصصي نفسـه. وتقيدون الثور الذي يدرس حبوب حقولكم. عمري الآن ست وأربعون سنة، ولم

أحقق حتى الآن شيئا أرضاه لنفسي.

المدير : في هذه الحالة، لا أود أن أضايقك أكثر.

جاليليو : شكرا.

(يذهب المدير. يبقى جاليليو وحده لحظات ويشرع في العمل. يدخل أندريا باندفاع)

جاليليو : (من دون أن يقطع عمله) لماذا لم تأكل التفاحة؟

أندريا : بهذه أود أن أثبت لها أن الأرض تدور.

جاليليو : عليّ أن أقول لك شيئا يا أندريا: لا تتكلم عن أفكارنا مع الناس.

أندريا : لماذا؟

جاليليو : السلطات لا تريد هذا.

أندريا : لكن، مادامت هذه هي الحقيقة؟

جاليليو : صحيح، لكنها لا تريد. وفي مسألتنا هذه هناك سبب آخر. فنحن، علماءَ الطبيعة، لسنا قادرين باستمرار على سوق البرهان على ما نعتقد أنه حق. وحتى نظرية كوبرنيكوس العظيم لم يبرهن عليها بعد. إنها مجرد فرض. أعطني العدسات.

أندريا : لم يَكْف نصفُ الاسكوده. فاضطررتُ أن أترك هناك معطَفي رهْنا.

جاليليو : وماذا تصنع في الشتاء بدون معطف؟

(صمت. جاليليو يرتب العدسات على الورقة التي فيها الرسم الكروكي)

أندريا : لكن ما هو الفرض؟

جاليليو : هو أن نقر بأن شيئا ما محتمل، لكن من دون أن تكون لدينا الوقائع التي تثبته. خذ مثلا فيليشيا، هناك أمام دكان القفاص ومعها طفلها يرضع: إذا قلنا إنها تعطي الطفل

لبنا، وليس الطفل هو الذي يعطيها اللبن، فإن هذا القول يظل فرضا مادمنا لم نذهب إلى هناك ونشاهد ونحصل على الدليل. وأمام النجوم نحن مثل دود الأرض، بعيون ضعيفة لا ترى الكثير. والنظريات القديمة التي اعتقد الناس صحتها طوال ألف عام، هي على الاستعداد للانهيار، وفي هذه الأبنية الهائلة من الخشب أقل مما في السواند المفروض فيها أنها تسندها كميات من القوانين لتفسير القليل جدا من الأشياء، بينما الفرض الجديد لا يتضمن غير قليل من القوانين لتفسير كميات من الأشياء.

أندريا : لكنك برهنت لي على كل شيء.

جالليو : لقد أثبت فقط أن هذا ممكن. الفرض جميل، ولا شيء ضده.

أندريا : وأنا أيضا، يا سيد جالليو، أريد فيما بعد أن أصبح عالم طبيعة.

جالليو : أعتقد هذا، خصوصا أن هناك مسائل عديدة جدا يجب إيضاحها في ميداننا هذا. (ذهب إلى النافذة ونظر من خلال العدسات. وبدون حماسة كبيرة) انظر قليلا في هذا، يا أندريا.

أندريا : يا للعذراء مريم المقدسة! كل الأشياء تقترب. برج الناقوس يُرى قريبا جدا. وفي وسعي أن أقرأ الحروف على النحاس: «الحمد لله».

جالليو : هذا يساوي خمسمائة اسكوده بالنسبة إلينا.

* * *

(٢)

(جالليو يهدي إلى جمهورية البندقية اختراعا جديدا)

ما كل ما فعل العظيم عظيما
جالليو يأكل وافرا مسرورا
والآن اسْمع، واطْرح كلّ الغضب
اسْمَع حقيقة آلة المقراب

الترسانة الكبرى في ميناء البندقية.

أعضاء المجلس، وعلى رأسهم الدوج. وفي ناحيته يقف سجريدو، صديق جالليو، وفرجينيا جاليلاي، وعمرها ١٥ سنة، تحمل مخدة من المخمل عليها عدسة طولها نحو ٦٠ سنتيمترا، موضوعة في غلاف من الجلد الأحمر الغامق. جالليو واقف على منصة. وخلفه حامل العدسة، وبالقرب منه صاقل العدسات فدرتسوني مشغولا)

جالليو : صاحب السعادة، أيها المجلس النبيل. منذ قيامي بتدريس الرياضيات في جامعتكم، جامعة بادوا، وإدارتي لترسانتكم الكبيرة في مدينة البندقية هذه، كنت أحسب من واجبي ليس فقط أن أؤدي مهمتي الجامعية النبيلة بأمانة وإخلاص، بل وأيضا، أن أهيئ لجمهورية البندقية الوقور أرباحا غير عادية بفضل اختراعات مفيدة. وفي وسعي اليوم، والسرور يغمر نفسي، وبكل الاحترام الواجب لكم، أن أعرض عليكم آلة جديدة تماما، هي المقراب (التلسكوب)، وقد حققتها في ترسانتكم الشهيرة وفقا للمبادئ العليا لعلم الطبيعة والإيمان المسيحي. وهي ثمرة سبعة عشر عاما من الأبحاث المتصلة التي قام بها مَنْ يُشَرّفه أن يكون خادمكم المتواضع جدا والمخلص جدا. (جالليو يترك المنبر، ويأتي إلى قرب سجريدو. (تصفيق)

(جالليو ينحني لسجريدو هامسا) إني أضيّع وقتي!

سجريدو : (بصوت خفيض) يا صاحبي، سيكون في مقدورك أن تدفع ما عليك للجزار.

جالليو : صحيح، هذا سيجلب لهم نقودا.

(يحييّ من جديد)

المدير : (وهو يرتقي المنصة) صاحب السعادة، أيها المجلس النبيل! مـرة أخرى تكتـب صفحة مـن المجد في سـجل الفنون والصناعات بأحرف خطتها يـد بندقية. (تصفيق مهذب) عالم مشـهور في العالم كله يهـدي إليكم، وإليكم وحدكم، أنبوبـة رائجة البيع جدا، لتنتجوا منها وتلقوا بإنتاجكم في السـوق كما تشاءون. (تصفيق أشد). وهل لاحظتم أنه في وقت الحرب سنسـتطيع، بفضل هذه الآلة، أن نعرف أنباء سـفن العدو: عددَها ونوعها، نعرفها أسـبق من معرفتهم لسـفننا بسـاعتين، حتى أننا وقد عرفنا قواتهم نستطيع أن نقرر: هـل نطاردهم، أو نخوض معركة معهم، أو نهرب منْهـم. (تصفيق حاد) والآن، يا صاحب السـعادة، ويا أيها المجلس النبيل، إن السـيد جالليو يلتمس منكم أن تتفضلوا بقبـول هذه الآلة التـي اخترعها، والتي تشـهد بعبقريته، قبولها من يدي ابنته الجميلة.

(موسيقى. فرجينيا تتقدم، وتنحني، وتعطي المدير المقراب، وهذا بدوره يقدمه لفدرتسـوني. وفدرتسوني يضعه على الحامل ويصوبه. والدوج وأعضـاء المجلس يصعدون على المنصة وينظرون من خلال المقراب)

جالليو : (بصوت خفيض) لا أستطيع أن أعدك بتحمل هذه الألاعيب حتـى النهاية. انظر إليهم. إنهم يعتقدون أنهم تلقوا ألعوبة صغيرة سـتدر عليهم أرباحا طائلـة، إن الأمر أهم بكثير. هذه الأنبوبة، في الليلة الماضية، صوبتها نحو القمر.

سجريدو : وماذا رأيت؟

جاليليو : القمر لا يضيء بنفسه.

سجريدو : كيف؟

المستشارون : يا سيد جاليليو، إنني أستطيع أن أرى تحصينات سنتا روزيتا Santa Rosita هناك، على السفينة، يتناولون وجبة الغداء. سمك مقلي. هذا يسيل لعابي.

جاليليو : أقول لك إن علم الفلك توقف منذ ألف سنة بسبب عدم وجود عدسات.

عضو في المجلس : السيد جاليليو!

سجريدو : الكلام موجه إليك.

عضو في المجلس : يمكن المرء أن يبصر جيدا بواسطة هذا الجهاز. وعليّ أن أقول لأهلي أن يَكُفّوا بعد الآن عن الاستحمام فوق السطح.

جاليليو : هل تعرف ممَّ يتكون نهر المجرّة؟

سجريدو : لا.

جاليليو : أنا أعرف.

عضو في المجلس : جهاز مثل هذا، يا سيد جاليليو، يمكن أن يطلب المرء فيه عشر اسكودات.

(جاليليو ينحني)

فرجينيا : (مقتادة لودفكو إلى أبيها) يا أبي، لودفكو يودّ أن يهنئك.

لودفكو : (بتلعثم وحَرَج) تهانيّ، يا سيدي.

جاليليو : لقد أصلحته.

لودفكو : بالتأكيد، يا سيدي! لقد لاحظت أنك طليت الغلاف بالأحمر. في هولندا، كان أخضر.

جاليليو : (ملتفتا إلى سجريدو) وإني أسائل نفسي عما إذا كنت أستطيع أن أبرهن، بواسطة هذا الجهاز على صحة نظرية معينة.

سجريدو : فَكِّرْ فيما تقول.

المدير : يا جاليليو! الخمسمائة اسكوده صارت في جيبك.

جاليليو : (مــن دون أن يوجه انتباهه إليه) طبعا، أنا محتاط جدا من الوصول إلى نتيجة سابقة على الأوان.

(الدوج، رجل بدين متواضع، يقترب، وبهيبة متلعثمة يحاول أن يوجه إليه الكلام)

المدير : يا سيد جاليليو، صاحب السعادة الدوج.

(الدوج يصافح بشدة كف جاليليو)

جاليليو : صحيح، الخمسمائة اســكوده. إذن هم راضون يا صاحب السعادة؟

الدوج : من المحزن في جمهوريتنا أنه يجب مع شــيوخنا المتحوطين أن يقدم لهم حجة قبل أن نســتطيع أن ندس لعلمائنا بعض المنح.

المدير : ومــن ناحية أخرى، يا ســيد جاليليو، مــاذا تريد لمزيد من التشجيع وحفز الهمة؟

الدوج : (بابتسامة) لا بد لنا من حجة.

(الدوج والمدير يقتادان جاليــو إلى أعضاء المجلس الذين يحاصرونه. أما فرجينيا ولودفكو فيبتعدان ببطء)

فرجينيا : هل فعلت كما ينبغي؟

لودفكو : نعم، كما ينبغي، في نظري.

فرجينيا : ماذا جرى لك؟

لودفكو : أوه! لا شيء! ربما كان الغلاف الأخضر يؤدي الغرض نفسه.

فرجينيا : أعتقد أنهم جميعا راضون عن والدي.

لودفكو : وأنا أعتقد أنني بدأت أفهم شيئا في علم الطبيعة.

* * *

(٣)

(١٠ يناير سنة ١٦١٠: بواسطة المقراب، يكتشف جالليو في السماء ظواهر تبرهن على صحة نظرية كوبرنيكوس. صديقه يحذره من نتائج أبحاثه، ولكن جالليو يؤمن بالعقل الإنساني وقدراته.

في العاشر من يناير
عام ألف وستمائة وعشر
اكتشف جالليو
أن السماء غير موجودة

مكتب جالليو في بادوا. الوقت ليل. جالليو وسجريدو وهما ملفوفان بمعاطف ثقيلة، بالقرب من المقراب)

سجريدو : (وهو ينظر من خلال المقراب بصوت خفيض) الحافة الداخلية للهلال غير منتظمة، مسننة، مملوءة بالنتوءات. وفي الجانب المظلم، بالقرب من الحافة المضيئة، توجد نقط ضوئية. تظهر الواحدة بعد الأخرى. وابتداء من هذه النقط، ينتشر الضوء وينبسط على سطوح تزداد اتساعا، حيث تلحق بالمسطح المضيء الكبير.

جالليو : كيف تفسّر نقط الضوء هذه؟

سجريدو : هذا غير ممكن.

جالليو : نعم، هذه جبال.

سجريدو : جبال فوق نجم!

جالليو : جبال هائلة، قِمَمها ذَهّبَتْها الشمسُ المشرقة، بينما حولها لايزال الليل يُلقي ظلامه على السفوح. ما تراه هو الضوء الذي ينزل من أعلى القمم إلى عمق الأودية.

سجريدو : لكن هذا يتناقض مع عشرين قرنا من علم الفلك!

جالليو : تماما. ما تراه لم يره أحد من قبل، غيري أنا. وأنت ثاني إنسان.

سجريدو	:	لكن من المســتحيل أن يكون القمر أرضا ذات جبال وأودية، كما أنه من المستحيل أن تكون الأرض نجما.
جالليو	:	من الممكن أن يكون القمر أرضا ذات جبال وأودية، ومن الممكن أن تكون الأرض نجما: مجرد جرم سماوي، بين آلاف الأجرام، ولا شــيء أكثر من هــذا. هل أنت ترى الجــزء المظلم مظلما تماما؟
سجريدو	:	كلا. الآن وقــد ركزت انتباهي فإني أرى فيه ضوءا ضعيفا، ضوءا رماديا.
جالليو	:	وهذا الضوء ماذا عسى أن يكون؟
سجريدو	:	؟؟؟
جالليو	:	إنه قادم من الأرض.
سجريدو	:	غير معقول. كيف يتأتــى للأرض أن تكون مضيئة بجبالها وغاباتها وأنهارها، وهي جسم بارد؟
جالليو	:	بالطريقــة نفســها التي بهــا القمر مضيء. لمــا كان كلا الكوكبين مضيئا بالشــمس، فهــذا يجعلهما مضيئين. وما القمر بالنسبة إلينا إلا كما نحن بالنسبة إلى القمر. والقمر يرانا أحيانا على هيئة هلال، وأحيانا نصف دائرة، وأحيانا دائرة كاملة، وأحيانا لا يرانا أبدا.
سجريدو	:	إذن لا فارق بين القمر والأرض؟
جالليو	:	لا فارق، كما يظهر.
سجريدو	:	منذ أقل من عشــر ســنوات، أُحْرق رجل فــي روما. وكان اسمه جوردانو، وكان هذا تماما هو ما قرره.
جالليو	:	بالتأكيد. ونحن نرى الأمر بوضوح. ركز عينك في العدسة، يا ســجريدو. ما تراه هو أنه لا فرق بين الســماء والأرض. نحن اليوم في العاشــر من يناير ســنة ١٦١٠. والإنسانية سجَّلت في سجلِّها: «اليوم حذفنا السماء».
سجريدو	:	هذا مخيف.

جالليو : لقد اكتشفتُ شيئا آخر، شيئا ربما كان أكثر إثارة للدهشة.

السيدة سارتي : (وهي تدخل) المدير!

(المدير يدخل في لهفة)

المدير : معذرة عن المجيء في ساعة متأخرة. سأكون ممتنا إذا استطعتُ الكلام معك وحدك.

جالليو : يا سيد بريولي، كل ما أستطيع سماعه يستطيع السيد سجريدو أيضا سماعه.

المدير : ربما لا يسرك أن يسمع هذا السيد الحكاية. إنه لأمر مع الأسف لا يمكن أبدا تصديقه.

جالليو : اعلم أنه حين يكون السيد سجريدو معي فإنه متعود سماع أمور لا يمكن تصديقها.

المدير : أنا خائف من الأمر، خائف تماما. (وهو يشير إلى المقراب) هذا هو الجهاز إياه! هذا الجهاز تستطيع أن تلقي به في المهملات. لا فائدة منه، أبدا.

سجريدو : (وكان يتمشى باضطراب محموم) وكيف؟

المدير : هل تعرف أن اختراعك هذا المزعوم، الذي قدّمته على أنه ثمرة سبعة عشر عاما من البحث، يمكن شراؤه باسكودات قليلة في كل أنحاء إيطاليا؟ وفوق هذا، هو مصنوع في هولندا. وفي هذا الوقت بالذات هناك سفينة هولندية تفرغ في الميناء مجموعة من خمسمائة وحدة من جهازك هذا.

جالليو : صحيح؟

المدير : أنا لا أفهم السر في هدوئك يا سيدي.

سجريدو : ماذا يحزنك؟ اعلَمْ أن السيد جالليو قد استطاع بهذا الجهاز أن يكتشف في هذه الأيام اكتشافات عن عالم النجوم ستقلب كل شيء.

جالليو : (ضاحكا) يمكنك أن تنظر، يا بريولي.

المدير : إذن فلتعلـم أن اكتشـافي يكفيني: أنا الـذي وافقت على مضاعفـة مرتب السـيد الجليـل جالليو، مـن أجل هذه القطعـة من الحديد الخردة. والسـادة أعضـاء المجلس، الذين اعتقدوا أنهم بهذه الآلة قد أمّنوا للجمهورية امتلاك شيء لا يمكن صناعته إلا هنا، ويمكنهم إذا نظروا فيها أن يشـاهدوا بائعا جوالا بسـيطا مكبرا سبع مرات وهو يبيع في أقرب زاوية من الشـارع، هذه الأنبوبة نفسها تباع بما يساوي ثمن قطعة من الخبز.

(جالليو يضحك ضحكة رنانة)

سجريدو : يا سيدي بريولي العزيز، لا شك في أنني لا أستطيع الحكم الصحيـح على القيمـة التجارية لهذه الآلـة، لكن قيمتها بالنسبة إلى الفلسفة كبيرة جدا إلى حد..

المدير : بالنسـبة إلى الفلسفة! وما شأن السـيد جالليو بالفلسفة، وهو عالم رياضيات؟ يا سيد جالليو؟ لقد اخترعت منذ مدة للمدينـة مضخة ماء جيدة، وجهـاز الري هذا يعمل بكفاية تامة. والنساجون هم الآخرون لا يتحدثون عن ماكينتك هذه إلا بكل خير. فكيف كنتُ أتوقع منك مثل هذه الضربة؟

جالليو : رفقا، يابريولـي. إن الطرق البحرية لاتـزال بطيئة، قليلة الأمان، وغاليـة التكاليف. ويعوزنا نوع من السـاعات في السـماء، يمكـن الاعتماد عليـه، من أجل تبيـين الطريق للسفن. وعندي من الأسباب ما يجعلني أفترض أنه بفضل هـذا المقراب يمكـن رصد بعض النجـوم ذوات الحركات المنتظمة جدا. خرائط جديدة للسـماء، يا بريولي، ستوفر للملاحة الملايين من الاسكودات.

المدير : كفى، كفى. كفاني أني سمعت كلامك مرة أكثر مما ينبغي. وبـدلا من أن تشـكر لي فضلي جعلت مني هُـزأةَ المدينة. وستبقى ذكراي عند الناس ذكرى مدير احتيل عليه بعدسة

هـــي ســلعة رديئة. لك الحــق في أن تضحــك! أنت، لقد حصلت على الخمسمائة اسكوده التي طالبت بها. أما عن نفسي فإني أســتطيع أن أقول لك، ومن يقول لك هذا هو رجل شــريف: إن العالم الذي أعيش فيه يثير في نفســي الاشمئزاز (يخرج قارعا الباب من خلفه)

جالليو : في غضبه يصير شِــبْه لطيف. هل سمعتَ: عالَمٌ يستحيل فيــه عقــد صفقــات مادية، هــذا العالم يثير في نفســه الاشمئزاز!

سجريدو : هل كنت على علم بهذه الآلات الهولندية؟

جالليو : نعم، بالســماع. لكنــي صنعت لهؤلاء الأشــخاص أعضاء المجلس الأعلى آله أفضل بعشــر مــرات. كيف يمكنني أن أشــتغل، والمُحضِر في غرفتي؟ وفرجينيــا، وقد آن الأوان لإعــداد جهازها، إنها قليلة الحظ من الذكاء. ثم إني أحب شــراء الكتب، وليس فقط في علم الطبيعة. كما أني أحب الأكل الجيد. ففي أثناء الطعــام الجيد تنثال عليّ الأفكارُ يــا له من عصر فاســد! إنهم لم يعطونــي حتى مقدار ما يعطونــه للحوذي الذي ينقل براميــل الخمر. أربعة أحمال حطــب وقودا من أجل دروس لمدة ســاعتين أســبوعيا في الرياضيات! والآن قد انتزعت منهم خمســمائة اســكوده، لكــن بقيت عليّ ديون مطلوبٌ دفعها، بعضُها مســتحق من عشــرين ســنة. كل ما أريده هو خمس سنوات من الهدوء للقيام بأبحاثي. وحينئذ ســأحصل على كل البراهين، أود أن أريك شيئا آخر.

سجريدو : (وهو يتردد في الاقتراب من المقراب) يا جالليو، أشعر بما يشبه الخوف.

جالليو : سأريك الآن واحدا من هذه الضبابات اللامعة اللبنية التي تكوّن المجرّة. قل لي، من أي شيء تتكون؟

سجريدو : من نجوم، يستحيل إحصاؤها.

جالليو : فقط في كوكبة الجوزاء يوجد خمســمائة نجم ثابت. هذه هــي العوالم العديدة، العوالم التــي لا حصر لها، والنجوم البعيــدة التي تكلم عنها هذا الذي أحرقــوه. إنه لم يرها، ولكنه توقعها.

سجريدو : لكــن حتى لو فرضنـــا أن هذه الأرض التي نحــن عليها هي كوكــب، فإننا لانزال بعيدين عن أقوال كوبرنيكوس الذي يرى أنها تدور حول الشــمس. إذ لا يوجد في السماء كوكب يدور حول كوكب آخر. لكن، وفق علمي، حول الأرض يدور القمر.

جالليو : إني أسائل نفسي، يا سجريدو. منذ أمس وأنا أسائل نفسي. خذ المشــتري (يصوّب المقراب) هنـــاك بالقرب منه أربعة نجوم أصغر منه لا يمكن رؤيتها إلا بالمقراب. شاهدتها يوم الاثنين، لكن من دون أن ألتفت إلى مواقعها. وأمس عاودت النظر إليها. وكان في وســعي أن أقســم علــى أن النجوم الأربعة غيّرت مواقعها. سحبت مواقعها. فتغيرت مواقعها أيضا. ماذا يحدث؟ ومع ذلك رأيت أربعة.

(بدهشة كبيرة) انظر، وقل لي.

سجريدو : أرى ثلاثة.

جالليو : أين الرابع إذن؟ هذه هي الرسوم. لا بد أن نحسب الحركات التي قامت بها.

(يجلســان في اهتياج شــديد ويأخذان في العمل. المسرح يصبــح مظلمــا، لكن لايزال يشــاهد في الأفق المشــتري وتوابعه. وحينما يضاء من جديــد، يُرَى الرجلان لايزالان جالسين. وهما يلبسان معاطف شتوية)

جالليو : تم البرهان. الإمكان الوحيد هو أن النجم الرابع انتقل إلى الجانب الآخر من المشــتري بحيث لم يعــد مرئيا. وهكذا لديك كوكب يدور حول كوكب آخر.

سجريدو : والغلاف البَلّوري الذي يوجد فيه المشتري؟

جالليو	:	صحيح، أين هو الآن؟ في أي شيء يوجد المشتري، إذا كانت هناك نجوم أخرى تدور حوله؟ ليس في السماء نقطة ارتكاز وليس في الكون مرساة! لدينا شمس جديدة.
سجريدو	:	هدّئ نفسك! أنت تتعجل البرهنة.
جالليو	:	كيف أتعجل؟ تحمس! فإن ما تراه هناك لم يره أحد من قبل. لقد كانوا على صواب.
سجريدو	:	من؟ أنصار كوبرنيكوس؟
جالليو	:	وكذلك الرجل الآخر. العالم كله كان ضدهما، وهما اللذان كانا على صواب. هذا شيء من أجل أندريا. (في حماسة شديدة يهرع إلى الباب ويصرخ صائحا): سيدة سارتي! سيدة سارتي!
سجريدو	:	ياجاللليو، هدئ من روعك.
جالليو	:	يا سجريدو، تحمس. سيدة سارتي!
سجريدو	:	(مزيحا المقراب) ألا تتوقف عن النهيق عاليا كالمجانين؟
جالليو	:	وأنت ألا تتوقف عن القبوع هناك كالحطبة، في الوقت الذي فيه انكشفت الحقيقة؟
سجريدو	:	لست قابعا كالحطبة، بل أنا أهتز من فكرة أن هذه ربما كانت الحقيقة.
جالليو	:	ماذا؟
سجريدو	:	هل فقدت كل عقلك؟ هل صرت عاجزا عن فهم ما تخاطر بالوقوع فيه لو صح ما ترى، ولو رحت تصيح في كل مكان بأن الأرض جرم سماوي، وليست مركز العالم؟
جالليو	:	نعم، وأنه ليس كل هذا الكون الهائل، بكل أجرامه السماوية، هو الذي يدور حول أرضنا الصغيرة جدا، كما كان الكل يعتقدون.
سجريدو	:	وإذن ليس هناك غير أجرام سماوية! إذن أين الرب؟

جالليو	:	ماذا تريد أن تقول؟
سجريدو	:	والرب؟ أين الرب؟
جالليو	:	(غاضبا) إنه ليس هناك في أعلى، على كل حال! لن نعثر عليه هناك في أعلى، كما أن الناس الذين في أعلى لن يجدوه هاهنا.
سجريدو	:	وفي هذه الحالة، أين الرب؟
جالليو	:	هل أنا لاهوتي؟ أنا رياضي.
سجريدو	:	قبل كل شيء، أنت إنسان. وأنا أسألك: أين الله في نظامك هذا؟
جالليو	:	في داخل نفوسنا، أو ليس في أيّ مكان.
سجريدو	:	(صائحا) مثل ما قال ذلك الذي أحرقوه؟
جالليو	:	نعم، كما قال ذلك الذي أحرقوه.
سجريدو	:	إنهم أحرقوه لهذا السبب عينه، منذ أقل من عشر سنوات!
جالليو	:	لأنه لم يقدم الدليل. كان يقرر فقط. يا سيدة سارتي!
سجريدو	:	جالليو، لقد عرفتك دائما رجلا ماكرا. طوال سبع عشرة سنة في بادوا وثلاث سنوات في بيزا كنت تدرس – من دون تبرّم – لمئات التلاميذ نظام بطلميوس الذي أعلنته الكنيسة وأيده الكتاب المقدس الذي هو أساس الكنيسة. لقد كنت ترى هذا النظام زائفا، متفقا في ذلك مع كوبرنيكوس، وعلى الرغم من هذا كنت تقوم بتدريسه.
جالليو	:	لأنه لم يكن عندي أدلة.
سجريدو	:	(غير مقتنع) وهل تظن أن هذا يحدث فرقا؟
جالليو	:	فرقا هائلا جدا. أنت ترى، يا سجريدو، أنني أثق بالإنسان، ومعنى هذا أنني أثق بعقله. وبدون هذه الثقة لن تكون لديّ القدرةُ على النهوض في الصباح من فراشي.

سجريدو : أمــا أنا فأقول لك عن نفســي: إنني لا أثــق. أربعون عاما قضيتها بين الناس قد جعلتني دائما أتبين أنهم لا يستمعون لصوت العقل. أرِهِم الذنَب الأحمر لنجم مُذَنَّب، وأثِرْ فيهم جزعــا صامتا – تجدهــم يقفزون من النافذة ويكســرون ســيقانهم. لكن قل لهم شــيئا معقولا، وســق لهم عشرات البراهين، تجدهم يسخرون منك.

جاليليو : هــذا خطأ فاحش، وافتــراء. ولا أفهم، وأنــت تعتقد هذا الاعتقاد، كيف تســتطيع أن تحب العلم. الموتى وحدهم هم الذين لا تؤثر فيهم البراهين والأدلة.

سجريدو : كيف تخلط بين خبثهم المثير للشفقة وبين العقل؟

جاليليو : أنا لا أتكلم عن خبثهم ودهائهم. أنا أعلم جيدا أنهم يسمون الحمار فرســا حين يريدون بيعه، ويســمون الفرس حمارا حين يريدون شــراءه. هذا هو كل خبثهم. أما العجوز التي تعطي البغل حزمة زائدة من العلف بيدها الخشــنة عشية الســفر، والملاح الــذي يتوقع حدوث العاصفة والســكون الساكن، حينما يشتري الزاد للسفينة، والطفل الذي يكبس طاقيته حين يشــار إليه بأن المطر سيسقط – هؤلاء الناس هم أملي، إنهم عقلاء. نعــم، لديّ ثقة في الضغط الرقيق الذي يمارســه العقل على الناس. وبمرور الزمن لا يملكون شيئا ضده. لن يســكت أحد. (يرمي بحصاة فتسقط على الأرض) إذا ســقطت الحصاة وقلت: إنها لم تسقط. لا لن يســتطيع أحد ذلك، إن الإغراء الصادر عن برهان لا يمكن أن يقاوم. الكل تقريبا لا بد أن يســلموا به في نهاية الأمر. إن التفكيــر يؤلف جزءا من أكبر اللذات التي يستشــعرها الجنس البشري.

السيدة سارتي : (وهي تدخل) هل أنت في حاجة إلى شيء يا سيد جاليليو؟

جاليليو : (وقد عاد إلى المقراب وأخذ يسجل ملاحظات، بلهجة ودية للغاية) نعم، أنا في حاجة إلى أندريا.

السيدة سارتي : أندريا؟ هو في فراشه بسبيل النوم.

جالليو : ألا تستطيعين إيقاظه؟

السيدة سارتي : لكن ماذا تريد منه؟

جالليو : أريد أن أطلعه على شـــيء يسره. سيرى شيئا لم يره إنسان من قبل، منذ أن وجدت الأرض، فيما عدانا نحن الاثنين.

السيدة سارتي : لا بد أنه شيء مما يُرى بأنبوبتك هذه.

جالليو : تماما. بأنبوبتي. يا سيدة سارتي.

السيدة سارتي : ومـــن أجل هذا علـــيّ أن أوقظه في جنـــح الليل؟ هل أنت مجنون؟ إنه في حاجة إلى الليل لينام. أما أن أوقظه، فهذا مستحيل.

جالليو : صحيح؟

السيدة سارتي : تماما.

جالليو : في هذه الحالة، يا ســيدة سارتي، ربما تستطيعين أنت أن تساعديني. لقد وقعنا على مسألة لم نصل فيها إلى اتفاق، ربما لأننا قرأنا الكثير من الكتب. مســـألة تتعلق بالسماء، مســـألة تتعلق بالنجوم. وها هي ذي: ما هو الأكثر احتمالا: أن يدور الشـــيء الكبيـــر حول الصغيـــر، أو الصغير حول الكبير؟

السيدة سارتي : (بتشكك) معك يا سيد جالليو لا يشعر المرء أبدا باطمئنان. هل هذا سؤال جاد، أو تريد فقط أن تسخر مني؟

جالليو : المسألة جد.

السيدة سارتي : إذن فخـــذ الجـــواب في الحـــال. هل أنت الـــذي تقدم لي الطعام، أو أنا الذي أقدم لك الطعام؟

جالليو : أنت التي تقدّمين إليّ طعامي. وأمس كان شائطا.

السيدة سارتي : ولماذا كان شـــائطا؟ لأنك ألزمتنـــي بإحضار حذائك حينما كنت مشغولة بطهو الطعام. ألم أحضر لك حذاءك؟

جالليو : ممكن.

السيدة سارتي : مـن بين كلينا أنت الذي درسـت ويمكـن أن تدفع الأجرة للآخر.

جالليو : فاهم، فاهم، هذا ليس صعبا. صباح الخير يا سيدة سارتي. (السـيدة سـارتي تخرج مبتهجة) وبعد هذا يقال إن ناسا مثلها لا يسـتطيعون إدراك الحقيقة؟ إنهم متعطشون إليها كأنهـا خبز جيد. (ناقوس يبدأ في الدق معلنا عن القداس الأول. تدخل فرجينيا متدثرة بمعطف وفي يدها مصباح)

فرجينيا : صباح الخير، يا أبي.

جالليو : لماذا استيقظت؟

فرجينيا : أنـا ذاهبة مع السـيدة سـارتي لحضور قداس السـاعة السادسة صباحا. ولودفكو سيذهب أيضا. هل كانت الليلة حسنة يا والدي؟

جالليو : كانت صافية.

فرجينيا : هل يمكنني النظر فيه؟

جالليو : لماذا؟ (فرجينيا لا تعرف بماذا تجيب) هذه ليست لعبة.

فرجينيا : لا، يا والدي.

جالليو : ثم إن هذه الأنبوبة خدعة كبيرة ، هكذا ستسـمعين الناس يقولون في كل مكان. إنها تباع في الشارع بثلاث اسكودات، وقد سبق اختراعها في هولندا.

فرجينيا : ألم تطلعك على شيء جديد في السماء؟

جالليو : لا شـيء يشـوقك. مجرد بقع صغيرة غامضة على يسـار نجـم كبير، ولا بد لي مـن أن أجد الوسـيلة للفت النظر إليها. (وهو يتحدث إلى سـجريدو من فوق رأس فرجينيا) أستطيع أن أسميها الكواكب المدتشية، باسم الدوق الكبير في فيرنتسـه. (مخاطبا فرجينيا) قد يهمك يا فرجينيا أن

تعلمي أننا راحلون إلى فيرنتسه. كتبت رسالة إلى هناك أسأل فيها هل لدى الدوق الكبير وظيفة من أجلي، رياضيا في البلاط.

فرجينيا : (مبتهجة) في البلاط؟

سجريدو : جاليليو!

جاليليو : يا صديقي، أنا في حاجة إلى الفراغ، أنا في حاجة إلى براهين. وأريد نصيبي من صحن العدس. في هذا المنصب لن أعود في حاجة إلى تكرار نظام بطلميوس في دروس خصوصية. سيكون عندي الوقت، الوقت لنفسي، يا سجريدو، من أجل تحرير براهيني. لأن ما عندي حتى الآن غير كاف. لا قيمة له، مجرد أعمال غير منسقة، لا أستطيع بها أن أتقدم إلى العالم. لم أعثر بعد على أي برهان على أن ثمة جرما سماويا يدور حول الشمس. لكني سآتي بالبراهين، البراهين التي ستفرض نفسها على كل الناس، من الأمّ سارتي حتى البابا على عرشه. الشيء الوحيد الذي يقلقني هو أن البلاط لا يعطيني منصبا.

فرجينيا : من المؤكد أنك ستُعطَى منصبا، يا أبي! مع النجوم الجديدة والباقي!

جاليليو : اذهبي لحضور القداس. (فرجينيا تخرج) من النادر أن أكتب إلى شخصيات كبيرة . أتظن أنني أحسنت؟

(يعطي الرسالة إلى سجريدو)

سجريدو : (يقرأ – بصوت عال – نهاية الرسالة التي أعطاه إياها جاليليو) «... إذ ليس أعز عندي من أن أكون بقربكم، يا من شمسه البازغة ستكون نور الدنيا بأسرها». الدوق الكبير عمره تسع سنوات.

جاليليو : تماما. يبدو لي أنك تجد رسالتي مملوءة بالتذلل. وأنا على العكس من ذلك أسائل نفسي: هل فيها من التذلل ما

ينبغــي، وعما إذا كان فيها تحفظ، وكأنه يعوزني الإخلاص الكافــي. مَنْ برهن على نظرية أرســطو لــه الحق في أن يستخدم أسلوبا متحفظا، أما أنا، فلا. بل لا بد لرجل مثلي أن يزحف على بطنه ليصل إلى مكانة محترمة. وأنت تعلم جيدا أنني أحتقر أولئك الذين لا تستطيع عقولهم أن تملأ بطونهم.

(السيدة سارتي وفرجينيا تمران بالقرب منهما من دون أن تتوقفا وهما في طريقهما إلى القداس)

سجريدو : يا جاlليو، لا تذهب إلى فيرنتسه.

جاlليو : لماذا؟

سجريدو : لأن الرهبان هم السادة هناك.

جاlليو : في بلاد فيرنتسه علماء مشهورون.

سجريدو : ناس مستعدون لعمل أي شيء.

جاlليو : سأمســك بهم من آذانهم وأجرُّهم إلى هذه الأنبوبة. وحتى الرهبان، يا ســجريدو، هم بشــر. هم أيضا ينهارون أمام إغــراء البراهين. ولا تنــس أن كوبرنيكــوس التمس منهم أن يثقــوا بحســاباته بعيونهــم. حين يكــون الحق ضعيفا غيــر قادر على الدفاع عن نفســه، فلا بد له أن ينتقل إلى الهجوم. سأمسك بهم من آذانهم وأرغمهم على النظر بهذه الأنبوبة.

سجريدو : يا جاlليو، أراك تسلك طريقا مروعا. اللعنة على الليلة التي فيها يرى الإنسان الحقيقة! لحظة عَمَى، تلك التي فيها يثق بعقل الإنســان! عمَّن يقال إنه يمشي مفتوح العينين؟ عمّن يســعى إلى هلاكه. وأنىّ للأقوياء أن يدعوا حرا من يعرف الحقيقة، حتى لو كانت هذه لا تتعلق إلا بالنجوم القصيّة؟

لــو قلت للبابــا إنه مخطئ، فهل تعتقد أنه سيســتمع إلى حقيقتــك لا إلــى قولك له «أنــت مخطئ»؟ وهــل تعتقد

أنه سيكتفي بأن يسجل على ألواحه: «١٠ يناير سنة ١٦١٠ إلغاء السماء»؟ كيف يخطر ببالك أن تترك هذه الجمهورية، والحق في جيبك، لتلقي بنفسك والأنبوبة في يدك، في حبائل الأمراء والرهبان؟ أنت القليل الثقة فيما يتعلق بالعلم، ما بالك ساذجا كالطفل في كل ما يبدو أنه يساعدك على ممارسته؟! أنت لا تثق بأرسطو، أما الدوق الكبير فأنت تثق به. منذ قليل وأنا أشاهدك بالقرب من أنبوبتك تشاهد النجوم الجديدة، خُيل إليّ أني أراك تتلوى على حطب مشتعل، وحينما قلت: «أنا أثق بالبراهين»، خُيّل إلي أنني أتنسم رائحة اللحم المشوي. أنا أحبّ العلم، لكني أحبك أكثر، يا صديقي القديم، يا جاليلو، لا تذهب إلى فيرنتسه.

جاليلو : إذا أرادوني، فإني سأذهب.

(على ستارة تبدو الصفحة الأخيرة من الرسالة)

«وحين أجرؤ على أن ألقب النجوم الجديدة التي اكتشفتها بلقب أسرة مدتشي، لا يفوتني أن ألاحظ أنه إذا كان الانتساب إلى السماء ذات النجوم يضفي المزيد من المجد على الآلهة والأبطال، فإن الاسم السامي لآل مدتشي هو الذي سيضمن لهذه النجوم شهرة لا تمحى. وأما عن نفسي، وأنا أذكركم بأنني واحد من أخلص خادميكم، فإني سأعد دائما أن أعز ما أعتز به هو أنني ولدتُ واحدا من رعاياكم، إذ ليس أعز عندي من أن أكون بقربكم، يا من شمسه البازغة ستكون نور الدنيا بأسرها».

جاليليو جاليلاي

* * *

(٤)

(غيّــر جالليــو مقامه فــي جمهورية البندقيــة إلى بلاط فيرنتسه. وهناك اصطدمت اكتشافاته – التي توصل إليها بمقرابه – بالإنكار من جانب العلماء.

«أنا ما قد كان دوما»

هكذا قال القديم.

«صِرْتَ لا تَصْلُحُ، فاذْهَبْ»

هكذا قال الجديد.

منزل جالليــو في فيرنتســه. في مكتب جالليو، الســيدة ســارتي تهيئ كل شيء من أجل اســتقبال مدعوين. وابنها أندريا جالس يرتب خُرَطا للسماء)

السيدة سارتي : منــذ وصلنا إلى فيرنتســه هــذه، ولم نفرغ مــن المجاملات والنفاق. كل المدينة تمر أمام هذه الأنبوبة، وبعدها أســتطيع التنظيــف. وكل هذا لا يؤدي إلى شــيء. لــو كانت في هذه الاكتشــافات ذرة من الحقيقة، فمن أولى بمعرفتها من رجال الكنيسة؟ لقد اشتغلت أربع سنوات عند مونسنيور فلبو، ولم أفرغ قط مــن تنظيف التراب المتراكم علــى كتبه. مجلدات ترتفع حتى الســقف، وليس فيها قصائد. وهذا المونســنيور الهمــام كان في مقعدتــه رطلان من الجــروح الناجمة عن اســتمراره قاعدا على كل هذا العلــم. أفمثل هذا الرجل لا يعــرف أين الحقيقة؟ واليوم هو يوم التفتيش الكبير وغدا لن أجــرؤ مرة أخرى على التطلع في وجه اللبّان. كنت أعرف ما كنت أقوله حين نصحته بأن يقدم وليمة عظيمة لهؤلاء السادة، وفخذة فخمة من لحم الضــأن، قبل أن ينظروا في أنبوبته. أنت تتكلم! (تقلد جالليو) «عندي لهم شيء آخر». (قرع على باب الشارع. السيدة سارتي تتطلع في مرآة النافذة) يا إلهي،

هـــا هو الدوق الكبير نفســه! وجالليو لايــزال في الجامعة!
(تنزل السلم بسرعة وتدخل دوق توسكانيا الكبير، كوزمو دي مدتشي، يصحبه كبير الياوران ووصيفتان)

كوزمو : أريد أن أرى الأنبوبة.

كبير الياوران : هــل يتفضل ســموك فينتظر حتى يحضر الســيد جالليو وبقية الســادة؟ (مخاطبا ســارتي) الســيد جالليو أراد أن يقوم الســادة علماء الفلك بفحص النجوم التي اكتشــفها والتي تسمى الكواكب المدتشية.

كوزمو : إنهم لا يعتقدون في الأنبوبة أبدا. أين هي؟

السيدة سارتي : هناك فوق، في قاعة المكتب.

(الولد يشير برأسه، ويشير إلى السلم، وبإشارة من السيدة سارتي يصعد السلم بسرعة)

كبير الياوران : (وهو رجل عجوز جدا) يا صاحب السمو! (مخاطبا السيدة ســارتي) هل من الضروري صعود هذا الســلم؟ لقد أتيت فقط لأن المربي مريض.

السيدة سارتي : لا خطر بالنسبة إلى السيد الفتى، وابني موجود فوق.

كوزمو : (وهو يدخل الغرفة العليا) مساء الخير!

(ينحنــي الصبيــان باحترام. صمت. ثم يأخــذ أندريا في العمل)

أندريا : (بنفــس لهجة أســتاذه جالليــو) الزحام هنــا كما في برج الحمام.

كوزمو : كثير من الزوار؟

أندريا : إنهم يأتون إلى هاهنا، يجررون شحمهم، ويفتحون عيونهم هكذا، ولكنهم لا يفهمون في الأمر شيئا.

كوزمو : فاهم. أهذه هي...

(يشير إلى الأنبوبة)

أندريا	:	نعم، هاهي ذي. لكن، حاسب. لا تمسسها!
كوزمو	:	وهذا، ما هذا؟
		(يشير إلى النموذج الخشبي لنظام بطلميوس)
أندريا	:	هذا نظام بطلميوس.
كوزمو	:	إنه يبين كيف تدور الشمس، أليس كذلك؟
أندريا	:	نعم، هذا ما يقولونه.
كوزمو	:	(وقد جلس على كرسي، وأخذ النموذج الخشبي على ركبتيه) إن معلمي مصاب بزكام. لهذا استطعت المجيء مبكرا. هذا المكان لطيف.
		(أندريا لا يقف في مكانه، ويدور في الغرفة بخطىً مترددة، ناظرا إلى هذا الصبي الذي لا يعرفه نظرة غير مطمئنة. وأخيرا، حين لم يتمالك مقاومة الإغراء، سحب من خلف كومة من الخرائط نموذجا آخر، هو نموذج نظام كوبرنيكوس)
أندريا	:	لكن بالطبع الأمر يجري على هذا النحو.
كوزمو	:	أي أمر؟
أندريا	:	(مشيرا إلى النموذج الذي مع كوزمو) يظن الناس أن الأمر يجري هكذا، ولكن (وهو يشير إلى النموذج الذي معه) الحقيقة أنه يجري هكذا. الأرض هي التي تدور حول الشمس، فاهم؟
كوزمو	:	تعتقد حقا؟
أندريا	:	وكيف! لقد ثبت هذا بالبرهان.
كوزمو	:	صحيح؟ أود أن أعرف لماذا لم يسمحوا لي بالدخول عند العجوز. بالأمس كان مع مدعوين إلى العشاء.
أندريا	:	يبدو أنك لا تصدق هذا؟
كوزمو	:	بلى، بالتأكيد.

أندريا : (مشيرا فجأة إلى النموذج الذي يحمله كوزمو على ركبتيه) هات هذا، أنت لا تستطيع حتى أن تفهم هذا.

كوزمو : لست في حاجة إلى الاثنين في وقت واحد.

أندريا : أعطني هذا. إنه ليس لعبة للأطفال الصغار.

كوزمو : إنـــي لا أمتنع مـــن إعطائك إياه، لكن عليـــك أولا أن تكون مؤدبا، فاهم؟

أندريا : أنت أبله، وبأدب أو بغير أدب، أعطني هذا وإلا أريتك.

كوزمو : لا تمسسني، فاهم؟

(يتضاربان، وبعد قليل يتمرغان على الأرضية)

أندريا : سأريك كيف يعامل النموذج. استسلم!

كوزمو : لقد انكسر. لقد لويتَ يدي.

أندريا : ســنرى مـــن هو الذي علـــى صواب. قـــل إنه يـــدور، وإلا لكمتك.

كوزمو : أبدا. آخ، يا أشعل! سأعلمك الأدب.

أندريا : أشعل؟ أنا أشعل؟

(يواصلان معركتهما في صمت. في أســـفل يدخل جالليو وكثير من أساتذة الجامعة. وخلفهم فدرتسوني)

كبير الياوران : يا ســـادة، توعك خفيف منع السيد ســـوريو، معلّم صاحب السمو، من مصاحبة صاحب السمو.

اللاهوتي : أرجو ألا يكون مرضه خطيرا.

كبير الياوران : لا خطر منه أبدا.

جالليو : (وعليه أمارات خيبة الأمل) وصاحب السمو؟ هل هو موجود؟

كبير الياوران : صاحب الســـمو موجود فوق. من فضلكم لا داعي للتأخير. البلاط يتحرق من أجل معرفة رأي الجامعة الشـــهيرة في الآلـــة العجيبة التي اخترعها الســـيد جالليو، وفي الكوكبة (المجموعة الكوكبية) الجديدة.

(يصعــدون. الصبيَّــان لايزالان على الأرضية وقد ســكنا حينما سمعا الضجة في أسفل)

كوزمو : ها هم أولاء. دعني أنهض.

(ينهضان بسرعة)

الزوار : (وهم يصعدون) كلا، كل شــيء على مــا يرام : كلية الطب تقــرر تقريرا قاطعا أن الحــالات التي لوحظت في المدينة القديمــة لا يمكــن أن تكون حــالات طاعــون. والأبخرة ســتتجمد بالضرورة، وذلك نظرا إلى الحــرارة الموجودة. أســوأ شــيء في هذه الحالة هو أن يتملك الناسَ الذعر.. مجرد موجة الزكام المعتادة في مثل هذا الفصل من السنة. لا شيء مشتبه فيه.. كل شيء على ما يرام.

(لما وصلوا إلى أعلى، ألقوا التحية)

جالليو : أنا ســعيد، يا صاحب السمو، أن أستطيع أن أُطلع رجالات الجامعة، في حضرتكم، على الاكتشافات الجديدة.

(كوزمو ينحني بأدب رسمي متجها إلى كل النواحي، وحتى أمام أندريا)

اللاهوتي : (وقد شــاهد النموذج المحطم لنظــام بطلميوس) يبدو أن ثم شيئا قد تحطّم. (كوزمو ينحني بسرعة ويعطي أندريا النموذج بأدب، بينما جالليو يرتب شأن النموذج الآخر خلسة)

جالليو : (أمام المقراب) سموّك يعلم من غير شك، أن حساباتنا نحن الفلكيين تصطدم منذ زمــان بعيد بصعوبات كبيرة. ونحن نستعمل فيها نظاما قديما جدا، يلوح أنه على اتفاق تام مع مبادئ الفلســفة، لكنه مع الأسف لا يتفق مع الوقائع. وفقا لهــذا النظام، نظام بطلميوس، يُعــزى إلى حركات النجوم عقيد شــديد. فوفقــا له، الكوكب فينــوس (الزهرة) مثلا يقوم بحركة من هذا النوع. (يرسم على لوحةٍ مدار الزهرة وفقا لنظام بطلميوس) لكن حتى لو أقررنا بحركاتٍ معقدة

كهذه، فإننا لن نستطيع التنبؤ بمواقع النجوم، إذ لا نجدها فــي المواقع التي ينبغــي أن تكون فيها. يضــاف إلى هذا بعض الحركات الســماوية التي لا يستطيع نظام بطلميوس تفســيرها. فهذا شــأن الحــركات التي تقوم بهــا النجوم الصغيرة التي اكتشفتها بالقرب من جوبتر (المشتري). هل تودون، ياسادة، أن نبدأ بإلقاء نظرة على توابع المشتري(*)، المسماة بالكواكب المدتشية؟

أندريا : (مشــيرا إلى الكرســي المســتدير أمام المقــراب) تفضل اجلس.

الفيلسوف : شكرا، ولدي، أخشى ألا يكون الأمر بهذه البساطة. يا سيد جالليو، قبل الانتقال إلى تطبيقات مقرابك الشــهير هذا، هل تسمح بالدخول في مناقشة موضوعها: هل يمكن وجود مثل هذه الكواكب؟

الرياضي : نعم، مناقشة منظمة.

جالليو : كنــت أتصور أنكم ســتكتفون بإلقاء نظــرة من خلال هذه العدسة، ثم تحكمون بأنفسكم.

أندريا : على هذا الكرسي، من فضلك.

الرياضي : مؤكــد، مؤكد. إنك لا تجهــل أن مــن رأي الأوائل أنه من المســتحيل تصور وجــود كواكب دوراتهــا لا تتخذ الأرض مركزا لها، وكذلك وجود نجوم من دون ارتكاز في السماء.

جالليو : من غير شك.

الفيلسوف : وحتــى من دون أن أتوقف للبحث فيما إذا كان من المتصور وجودهــا، وهو ما يبــدو أن زميلي الرياضــي (ينحني في اتجــاه الرياضــي) يضعه موضع الشــك، فإنــى أود بكل

(*) معظم الكواكب السيارة لها توابع تتناسب مع قدر الكوكب: فلكل من زحل والمشتري – وهما أكبر الكواكب السيارة التسعة – توابع، ولأورانوس توابع، وهكذا. والمعتقد هو أن التوابع هي في الأصل قطع انتزعت من الكواكب السيارة، كما انتزعت الكواكب السيارة من الشمس.

تواضـــع، بوصفي فيلســـوفا، أن أثير الســـؤال التالي: هل مثـــل هذه النجوم ضرورية؟ إن الكون عند أرســـطوطاليس الإلهي(*)...

جاليليو : أو ليـــس الأولى بنا أن نســـتعمل اللغـــة الجارية؟ إن زميلي السيد فدرتسوني لا يفهم اللاتينية.

الفيلسوف : هل من المهم أن يفهمنا؟

جاليليو : نعم.

الفيلسوف : معذرة. كنت أعتقد أنه مجرد صَقّال عدساتك.

أندريا : وفي الوقت نفسه عالم.

الفيلسوف : شكرا يا ولدي. إذا كان السيد فدرتسوني حريصا...

جاليليو : أنا، أنا حريص على هذا.

الفيلسوف : ســـتفقد المحاجّة روعتها، لكن هـــذا البيت بيتك. إن الكون كما وصفه أرســـطو الإلهي، بما فيه من انســـجام ســـري يؤلفه أفلاكه وقبابه البلوريـــة، وبالدورة الدائرية لأجرامه الســـماوية، وبميل المدار الشمسي، وبأســـرار ألواح حركة التوابع، وبالعـــدد الهائل من النجوم التي يثـــري منها ثَبَتُ نصفِ الكرة الجنوبي، وبالبناء اللماع لكرة أورانوس - هذا الكونَ بناء محكم الترتيـــب فائق البهاء إلى حد ينبغي معه ألا تُخِلَّ بما فيه من انسجام.

جاليليو : ومـــع ذلك، فهـــل يتفضل صاحب الســـمو بالنظر إلى هذه النجـــوم التي يقولون إنه لا يمكـــن تصورها ولا داعي لها، النظر إليها من خلال هذه العدسة؟

الرياضي : هذا يغري بالرد عليك بأن أنبوبتك هذه، وهي ترى شيئا لا يمكن وجوده، هي آلة غير جديرة بالثقة. فاهم؟

جاليليو : ماذا تريد بهذا التعريض؟

(*) هذه الجملة الأخيرة، باللاتينية: Aristotel's divini universum

الرياضي	:	انظر يا سيد جاليليو: إنه يفيدك أكثر لو تسوق البراهين التي تحملك على افتراض أنه في الفلك الأعلى لسماء الثوابت يمكن أن تتحرك نجوم من دون أن تكون مثبتة في شيء.
الفيلسوف	:	براهينك، يا سيد جاليليو، براهينك!
جاليليو	:	براهيني؟ تكفي نظرة واحدة إلى النجوم نفسها، وأرصادي التي سجلتها، من أجل إيضاح المسألة. يا سيدي العزيز، إن المناقشة صارت غير معقولة.
الرياضي	:	لو كنا واثقين بأنك لن تزداد انفعالا، لقلنا إنه بين ما يوجد في أنبوبتك وما يوجد في السماء يمكن أن يكون هناك فارق.
الفيلسوف	:	هذه أرقّ طريقة للتعبير.
فدرتسوني	:	هم يظنون أن الكواكب المدتشية نحن الذين رسمناها على العدسة.
جاليليو	:	هل تتهمانني بالاحتيال؟
الفيلسوف	:	أنّى لنا أن نفعل ذلك، ونحن بحضرة صاحب السمو؟
الرياضي	:	آلتك، سواء كانت ابنتك، أو لنقل بالأحرى ابنتك المتبناة، بارعة الصنع من غير شك.
الفيلسوف	:	ونحن واثقون، يا سيد جاليليو، بأنه لا أنت ولا أي إنسان ما كان له أن يتجرأ على أن يُزين بالاسم المجيد لبيت أمراءٍ نجوما وجودها ليس بمنأى عن كل شك.
		(الجميع ينحنون انحناءة عميقة أمام الدوق الكبير)
كوزمو	:	(موجها الخطاب إلى الوصيفتين) هل في كواكبي شيء من الاختلال؟
كبرى الوصيفتين	:	كلاّ، كل شيء على ما يرام في كواكب سموك. إن هؤلاء السادة يتساءلون فقط عما إذا كانت هذه الكواكب موجودة حقا.
		(صمت)

صغرى الوصيفتين : أوَ لا يقولون إنه يمكن بهذه الآلة رؤية عجلات «اَلْمركبة»(*)؟

فدرتسوني : نعم، وكذلك كل ما عند «الثور»!(**)

جالليو : إذن يا سادتي، هل تريدون أن تنظروا، أو لا؟

الفيلسوف : بكل تأكيد، بكل تأكيد،

الرياضي : بكل تأكيد.

(صمت. فجأة يدير أندريا ظهره راغبا في الخروج، مخترقا القاعة بشكل آلي. أمّه تقفه عند الباب)

السيدة سارتي : ماذا جرى لك؟

أندريا : إنهم مغفلون جدا.

(يتخلص منها ويهرب)

الفيلسوف : هذا الولد جدير بالشفقة.

كبير الياوران : يا صاحب السمو، يا سادة، هل أذكركم بأن حفلة الرقص الكبرى في القصر ستبدأ بعد ثلاثة أرباع الساعة؟

الرياضي : فيم كل هذه البهلوانيات؟ عاجلا أو آجلا لا بد للسيد جالليو من الإذعان لكلمة الحق. إن توابع المشتري من شأنها أن تخرق غلاف الفلك. هذا أمر واضح بنفسه.

فدرتسوني : ستندهش من قولي: لا يوجد غلاف فلك.

الفيلسوف : أي كتاب مدرسي سيقول لك إنه موجود يا صاحبي.

فدرتسوني : إذن فلتؤلَّف كتب مدرسية أخرى.

الفيلسوف : يا صاحب السمو! إن زميلي الجليل وأنا نستند إلى قول أرسطوطاليس الإلهي هو نفسه.

جالليو : (في شبه إذعان) يا أصحابي، إن الثقة بأرسطو العظيم شيء، والوقائع الملموسة شيء آخر. أنتم تقولون إنه تبعا

(*) ويسمى الدب الأكبر، وهي مجموعة كوكبية شكلها يشبه المركبة.

(**) برج من البروج بين الحمل والتوأمين حافل بالنجوم وأبرز مجموعاته الثريا.

لأرســطو العظيم ثمة أغلفة بلوريــة، وأن بعض الحركات مســتحيلة إذن، لأن النجوم في هذه الحالة من شــأنها أن تخرق الأغلفة. لكن إذا تهيأ لكم أن تشاهدوا هذه الحركات بأنفســكم، فما قولكم؟ ربما دعاكم هذا إلى التفكير في أن الأغلفــة البلورية هذه لا وجود لها. يــا أصحابي الأعزاء، أرجوكم بكل تواضع أن تثقوا بعيونكم.

الرياضي : يــا عزيزي جالليو، يحــدث لي أحيانا أن أقرأ أرســطو – وإن بدا هذا أمــرا عفّى عليه الزمن – وأؤكد لك أنني أثق بعيني.

جالليو : تعودت أن أرى الســادة في كل الكليات يغلقون عيونهم أمام الوقائع، وكأنها غير موجودة. أريهم أرصادي فيبتســمون، وأدعوهم إلى استعمال عدستي حتى يقتنعوا، فيذكرون لي أرسطو. لكن أرسطو لم تكن لديه هذه العدسة!

الرياضي : ليكن، ثم ماذا؟

الفيلسوف : (بجــلال) إذا أريد هاهنا تمريغ أرســطو في الوحل، وهو الحجــة التي اعتــرف بها ليس فقط كل كبــار العقول في العصر القديم، بل وأيضا آباء الكنيسة أنفسهم، فإنه يبدو لي من اللغو، على كل حال، أن نتابع المناقشــة. إني أرفض الخوض في مناقشة تخلو من الأمانة. لقد قلتُ.

جالليو : الحقيقة بنت زمانها، وليست بنت السلطة. إن جهلنا لا حدّ لــه، فلنقلل منه بمقدار ملليمتر مكعب! وفيمَ الإصرار على ادعــاء أننا عقول كبيرة، إذا كان في وســعنا الآن أن نكون أقل بلاهة؟ لقد واتاني حظ لا مثيل له، بأن وقعت بين يديّ آلة جديدة تمكّن من فحص جزء ضئيل من الكون على نحو أدق، ولا أقول أدق كثيرا. فاستخدموها إذن!

الفيلسوف : يا صاحب السّمو، سيداتي، سادتي! إني أسائل نفسي حقا إلى أي شيء سيفضي بنا هذا كله.

جالليو : يبدو لي، بوصفنا علماء، أننا لســنا بحاجة إلى أن نتساءل إلى أي شيء تؤدي الحقيقة.

الفيلسوف : (منفجرا) يا ســيد جالليو، الحقيقــة يمكن أن تفضي إلى بعيد جدا.

جالليو : يا صاحب الســموّ! في هذه اللحظة، وكل ليلة، في إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها، تصوّب عدســات إلى الســماء. وتوابع المشــتري لا تجعل ثمن اللبن أقل. لكنها لم تُرَ قط، ومع ذلك فهي موجودة. ورجل الشــارع يستخلص من ذلك، أن أشــياء أخرى كثيرة ستوجد، لو أنه صمم على أن يفتح عينيه! ومن حقه عليكــم أن يجد منكم التأييد. وما يجعل الآذان تُرعي الســمع لإيطاليا ليــس حركات بعض النجوم البعيــدة عنا، بل النبأ العظيم الذي يقول إن نظريات كانت تعد راســخة قد أخذت تتهاوى، والــكل يعلم أن الكثير من المذاهب حاله هكذا! سادتي الأعزاء، لا ندافع عن مذاهب متداعية!

فدرتسوني : عملكم أنتم يا أساتذة أن تثيروا هذا التداعي والتزعزع.

الفيلسوف : أود لــو أن مريــدك هذا أعفانا من نصائحه في مناقشــة علمية.

جالليو : يــا صاحب السّــمو! إن عملــي في الترســانة الكبرى في البندقية قــد جعلني أحتك كل يوم بالرســامين، والبنائين ومُرَكّبــي الآلات. هؤلاء الناس علمونــي طرقا جديدة. لم يقرأوا شيئا، ولكنهم وثقوا بشهادة حواسهم، وفي الغالب من دون أن يهتموا بماذا عسى أن تفضي إليه هذه الشهادة...

الفيلسوف : يا للفظاعة!

جالليو : كما فعل ملاحونا حين غادروا، منذ مائة عام، شواطئنا من دون أن يدروا ماذا عسى ستكون الشواطئ التي سيبلغونها، ولا حتى هل ســيبلغون شاطئا. وكأنه قد صار علينا اليوم،

في سبيل استعادة هذا التطلع الرفيع الذي كان السبب في مجد يونان القديمة، أن ننشده في الورش والترسانات.

الفيلسوف : بعد كل الذي ســمعناه في هذا البيت لم يعد عندي شــك قــط في أن الســيد جاليلــو يجد معجبين بــه في الورش والترسانات.

كبير الياوران : ياصاحب السمو! أنا متأسف، لكن يظهر لي أن هذه المناقشة المفيدة جدا قد طالت بعض الطول. ولا بد لصاحب السمو أن يســتريح قليلا قبل الرقص. (بناء على إشــارة وجهت إليــه، انحنى الدوق الكبير أمام جاليليو. وبدأت الحاشــية في الرحيل بسرعة. والسيدة سارتي، وقد اعترضت طريق الدوق الكبير، تقدم إليه صحنا من الفطائر)

السيدة سارتي : كعك باللوز يا صاحب السّمو.

(كبرى الوصيفتين تقتاد الدوق الكبير إلى الباب)

جاليليو : (ملحا عليهم): يا ســادة، لم يكن عليكم إلا أن تنظروا بهذه الآلة.

كبير الياوران : ســمو الأمير سيستشير فيما تقول أكبر علماء الفلك اليوم وهو الأب كرســتوفر كلافيوس الفلكــي الأول في المجتمع البابوي بروما.

* * *

(٥)

(اســتمر جاليليــو فــي أبحاثه مــن دون خــوف، حتى من الطاعون)

(أ)

مكتب جاليليو في فيرنتسه

(الصبــاح الباكر. جاليليو، والأرصاد أمامه، ينظر من خلال المقراب. تدخل فرجينيا وهي تحمل حقيبة سفر)

جاليليو : فرجينيا! ماذا جرى؟

فرجينيا : المدرســة أُغلقت، وكان علينا العودة حــالا إلى بيوتنا. في فيزولي خمس حالات طاعون.

جاليليو : (مناديا) يا أم سارتي!

فرجينيا : وهنا أيضا، شــارع السوق مغلق منذ هذه الليلة. يلوح أن ثم ميتين في الحيّ القديم، وثلاثة آخرين في المستشــفى على وشك الموت.

جاليليو : مرة أخرى كتموا عنا كل شيء حتى آخر لحظة.

السيدة سارتي : (وهي تدخل) ماذا أتى بك هاهنا؟

فرجينيا : يوجد طاعون.

السيدة سارتي : يا إلهي! سأذهب لحزم الأمتعة.

(تجلس)

جاليليو : لا، لا تحزمــي أمتعة! خذي فرجينيا وأندريا. وســأقوم أنا بأرصادي. (يعود بســرعة إلى مكتبه ويجمع أوراقه بلهفة. الســيدة ســارتي تُلبس أندريا معطفا، وهذا يصل مهرعا، ويخــرج ويحضر بعض الأغطية والزاد. يدخل خادم الدوق الكبير)

الخادم : نظرا إلى انتشار الوباء، غادر صاحب السّمو المدينة متجها شطر بولونيا. لكنه حرص على تمكين السيد جالليو من أن يكون في أمان. ستكون العربة أمام الباب بعد دقيقتين.

السيدة سارتي : (موجهة الخطاب إلى فرجينيا وأندريا) اخرجا حالا. احمل هذا!

أندريا : لماذا؟ إذا لم تقولي لي لماذا، فلن أرحل.

السيدة سارتي : يوجد طاعون، يا بني.

فرجينيا : نريد انتظار الوالد.

السيدة سارتي : يا سيد جالليو، هل انتهيت؟

جالليو : (واضعا المقراب في الغلاف) أجلسي فرجينيا وأندريا في العربة. وأنا قادم فورا.

فرجينيا : لا. لن نخرج من هنا بدونك. لن تنتهي أبدا إذا أخذت في حزم كتبك.

السيدة سارتي : العربة حضرت.

جالليو : كوني عاقلة يافرجينيا: إذا لم تأخذي مكانك في العربة، فسيرحل السواق. والطاعون وباء خطير.

فرجينيا : (وهي تحتج بينما السيدة سارتي تقتادها هي وأندريا) ساعديه في حزم كتبه، وإلا فلن يحضر.

السيدة سارتي : (عند المدخل، وهي تصيح) يا سيد جالليو! السواق يقول إنه لن ينتظر.

جالليو : يا سيدة سارتي! أعتقد أنه يجب عليّ ألا أرحل. فكل شيء مختلط، ثلاثة أشهر من تدوين مذكرات، لن يكون فيها فائدة إذا لم أستمر في العمل ليلة أو ليلتين أخريين. ثم إن هذا المرض منتشر في كل مكان.

السيدة سارتي : يا سيد جالليو! تعال معنا في الحال. لقد فقدت صوابك.

جالليو : عليك أن ترحلي مع فرجينيا وأندريا. وسأحضر فيما بعد.

السيدة سارتي : بعد ساعة لن يسمحوا لأحد بالرحيل. عليك بالحضور! (تتسمع) إنه مضى. يجب عليّ أن ألحق به.

(تخرج. جالليو يتجول في الغرفة. تعود السيدة سارتي، شاحبة جدا، وبدون لفّتها)

جالليو : ماذا تنتظرين؟ العربة وفيها الولدان سترحل من دونك.

السيدة سارتي : لقد رحلوا. أرادت فرجينيا أن تقفز من العربة، وكان لا بد من الإمساك بها بالقوة. في بولونيا سيجد الولدان العناية. أما أنت، فمن الذي سيهيئ لك الطعام؟

جالليو : هل فقدت عقلك؟.. تبقين في هذه المدينة لمجرد طهو الطعام! (يلوح بمذكراته) لا تظني يا سيدة سارتي أنني مجنون. سأستطيع أن أترك هذه الأرصاد على حالها. إن لي أعداء أقوياء جدا، ولا بد لي من تحصيل البراهين على أشياء أقررها.

السيدة سارتي : لست في حاجة إلى الاعتذار. لكن ما تفعله ليس من العقل في شيء.

(ب)

(أمام بيت جالليو في فيرنتسه. يخرج جالليو ويلقي نظرة صوب أسفل الشارع. تمر راهبتان)

جالليو : (مخاطبا إياهما) هل تستطيعان. يا أختيَّ، أن تخبراني أين أستطيع الحصول على خبز؟ لم تأت بائعة اللبن في هذا الصباح، وخادمتي رحلت.

إحدى الراهبتين : فقط في أسفل المدينة توجد بعض المحلات المفتوحة.

الراهبة الأخرى : أنت خارج من هذا البيت؟ (جالليو يشير بنعم) إنه في هذا الشارع!

(الراهبتان ترسمان علامة الصليب، وهما ترطنان بنشيد «سلام لك يا مريم» وتهربان. يمر رجل)

جالليو : (مخاطبا إياه) هل أنت الخبّاز الذي يأتي إلينا بالخبز الأبيض؟ (الرجل يشير بنعم) هل رأيت خادمتي؟ إنها لا بد رحلت بالأمس. لم تكن موجودة هذا الصباح. (الرجل يهز رأسه. نافذة تفتح من الجانب الآخر من الشارع. امرأة تطل برأسها، وتنظر)

المرأة : (صائحة) امش بسرعة! عندهم طاعون!

(الرجل يهرب فزعا)

جالليو : هل تعلمين شيئا عن خادمتي؟

المرأة : خادمتك وقعت هكذا دفعة واحدة، في أعلى الشارع. ولا بد أنها كانت تعرف ماذا أصابها. ولهذا رحلت. لم تفكر قط في غيرها!

(تغلق النافذة بعنف. أولاد يأتون من أقصى الشارع. يشاهدون جالليو فيهربون صارخين. جالليو ينحرف. في هذه اللحظة يأتي جنديان بسلاح كامل)

الجنديان : ادخل فورا في بيتك.

(برمحيهما الطويلين يدفعان جالليو إلى داخل بيته. ويصفقان الباب خلفه)

جالليو : (من النافذة) هل تستطيعان أن تخبراني ماذا فعلوا بتلك المرأة؟

الجنديان : هم يُدْفَنون في المقبرة المشتركة.

المرأة : (وقد أطلت من النافذة من جديد) لكن مادام الشارع الخلفي مملوءا بالطاعون!... ماذا تنتظران لإغلاقه؟ (الجنديان يمدان حبلا في عرض الشارع) لكن بهذه الطريقة لن يستطيع أحد الدخول. أنتم لا حاجة بكم إلى إغلاق الشارع هنا. الناس جميعا هنا في صحة جيدة. توقفوا توقفوا! اسمعوا. زوجي في المدينة، ولن يستطيع إذن العودة إلى البيت. متوحشون، شرذمة من المتوحشين!

تُسمع في الداخل أنّات وصيحات. يمضي الجنديان. من نافذة أخرى تطل امرأة عجوز)

جالليو : هناك في الخلف نار، من غير شك.

المرأة العجوز	:	الآن، حين يظنون أنه يوجد طاعون فإنهم لا يطفئون النار. الفكرة الوحيدة عندهم الآن هي الطاعون.
جالليو	:	هــذه طريقتهم! وكل نظام حكومتهم هكــذا! إنهم يقضون علينا كمــا يُقضى على الغصن المريض في شــجرة التين، الغصن الذي لا يعود يثمر.
المرأة العجوز	:	لا ينبغي التكلم هكذا. إنهم فقط لا يعرفون ماذا يعملون.
جالليو	:	هل أنت وحدك في بيتك؟
المرأة العجوز	:	نعم. ابني بعث إليّ بكلمة. والحمد لله أنه بالأمس عرف في الوقت المناسب أن شخصا قد مات في الشارع الخلفي، لهذا لم يعد. في هذه الليلة كان في الحي إحدى عشرة حالة.
جالليو	:	إني ألوم نفســي لأنني لم أرحِّــل خادمتي حين كان لايزال في الوقت متســع. كان عندي عمل مستعجل، ولكن لم يكن لديها أي داع للبقاء.
المرأة العجوز	:	علــى كل حــال، لا نســتطيع نحن أيضــا أن نرحل. إذ من هو الذي ســيرحب بنا؟ لا داعي للوم نفســك. إنها رحلت في هذا الصباح، نحو الســاعة السابعة. ولا بد أنها كانت مريضة: فإنها لما رأتني أخرج لآخذ الخبز، تَجَنَّبَتْني. وأظن أنها كانت تريد ألا يطوق بيتك. لكنهم ينتهي بهم الأمر إلى أن يعرفوا.

(يُسمع قرع طبول)

جالليو	:	ما هذا؟
المرأة العجوز	:	إنهم يحدثــون ضوضاء من أجل إبعــاد الغيوم التي تحمل جراثيم الطاعون.

(قهقهة عالية من جالليو) ومع هذا أنت تضحك!

(رجل ينزل الشارع ويجده مسدودا)

جالليو : يا رجل! كل شـــيء هنا مطوّق، وليس في البيت شيء يؤكل.

(اختفى الرجل وهو يعدو)

يا ناس، يا ناس! لا تدعونا نموت من الجوع هنا.

المرأة العجوز : ربما أحضروا شـيئا. وإلا ففي وسـعي أن أضع أمام بابك قـدرا من اللّبن إذا لم يكن هـذا ليروعك، ولكن ليس قبل مجيء الليل.

جالليو : يـا ناس، يـا نـاس! لكن ليـس مـن المعقـول ألا يكونوا يسمعوننا.

(عند الجانب الآخر من الحبل يظهر أندريا فجأة ويرى من وجهه أنه بكى)

جالليو : يا أندريا؟ كيف استطعت المجيء إلى هنا؟

أندريا : لقد مررت في هذا الصباح، وقرعت الباب ولكنك لم تفتح. والناس قالوا لي...

جالليو : إذن أنت لم تكن رحلت؟

أندريا : بلـى، لكني في أثناء الطريق أفلحت في الوثوب من العربة. غير أن فرجينيا بقيت فيها، ألا أستطيع الدخول؟

المرأة العجوز : كلا، ليس هذا ممكنا. لا بد لك أن تذهب إلى دير الراهبات الأرسوليات. وربما كانت أمك هناك.

أندريا : لقد ذهبت إلى هناك. لكن منعوني من رؤيتها. إنها مريضة جدا.

جالليو : لقد جئـت من مكان بعيـد جدا؟ لأنك رحلـت منذ ثلاثة أيام.

أندريا : لا تغضـب مني إذا كنت قد أمضيـت كل هذا الوقت. ذلك أنهم أوقفوني مرة في الطريق.

جاลليو : (متضايقــا) يجــب عليك أن تكــف عن البــكاء الآن. لقد اكتشــفت الكثير من الأشــياء منذ رحيلك. هل أحكي لك؟ (أندريا، وهو يتنهد، يهز رأسه علامة الموافقة) انتبه جيدا، وإلا فما استطعت الفهم، أتذكر أنني أريتك كوكب الزهرة؟ لا تستمع إلى الضجة التي هناك، إنها ليست بشيء.

أتذكر؟ أتعرف ما رأيته؟ إنها مثل القمر. لقد شاهدتها على شكل نصف كرة، وشاهدتها على شكل هلال. فما رأيك في هذا؟ وبوســعي أن أريك هذا بواسطة كرة صغيرة ومصدر ضوء. وهذا دليل على أن هذا الكوكب لا يســتمد نوره من ذاته. أليس هذا مدهشا؟

أندريا : (متنهدا) بالتأكيد، ثم إن هذه حقيقة.

جاลليو : (بصــوت خفيض) لســت أنا الــذي طلبت إليهــا أن تبقى (أندريا لا يجيب) لكن من المؤكد أنه لو لم أبق أنا، لما حدث ما حدث.

أندريا : والآن، هل سيضطرون إلى تصديقك.

جاลليو : الآن، جمعــت كل الأدلــة. حينمــا تنتهــي هــذه الحكاية، ســأذهب إلى روما لأقدم إليهم الأدلة. (من أقصى الشارع يأتي رجلان يلبســان برنسا ومعهما عصوان وجرادل. ومن النوافذ يقدمان إلى جاลليو، ثم إلى المرأة العجوز خبزا على أطراف عصواهما)

المرأة العجوز : هنــاك في البيت المواجــه توجد امــرأة وأولادها الثلاثة. اتركوا لهم شيئا.

جاลليو : أما أنــا فليس عنــدي ما أشــربه. ليس فــي البيت ماء. (الرجلان يهزان أكتافهما) هل ستأتيان غدا أيضا؟

أحد الرجلين : (بصوت محتبس، بســبب الشــاش الموجود أمام فمه) هل يعرف أحد ماذا سيحدث غدا؟

جالليو : لو جئتما فهل تستطيعان أن تحضرا إلي كتابا صغيرا أحتاج إليه في بحثي؟

الرجل : (بضحكــة مختنقة) يريد كتابــا! احمد ربك إذا جيء إليك بخبز!

جالليو : لكن هذا الصبي هناك، وهو تلميذي، ســيكون موجودا وما عليــك إلا أن تعطيــه الكتاب من أجلــي. إنه خريطة مبين فيها مدة دورة عطارد، يا أندريا، ولا أدري أين وضعته. هل تحضره من المدرسة؟ (الرجلان رحلا)

أندريا : بالتأكيد، سأذهب لإحضاره يا سيد جالليو.

(يخــرج. جالليو ينصرف. من المنــزل المواجه تخرج المرأة العجوز وتضع أمام باب جالليو كوزا)

* * *

(٦)

(ســنة ١٦١٦: الكليــة الرومانية، وهـي معهــد أبحاث في الفاتيكان، تؤيد اكتشافات جالليو.

في هذا العالم ما أندر

أن يقبل شيخ يتعلم.

كلافيوسُ، المخلص للّه

قد أعطى الحق لجالليو.

قاعة في الكلية الرومانية بروما. الوقت ليل. جماعات من كبار رجــال الكهنوت ومن الرهبــان والعلماء. وفي ناحية: جالليو وحده. يســود الجوَّ سرور غامر. قبل بداية المنظر، تسمع قهقهات)

كاهن بدين : (وهو يمســك بجنبيه) يا للبلاهة! يا للبلاهة السعيدة! أود أن يخبرني أحد بقول واحد لم يجد من يصدّقه.

عالم : هذا القول مثلا يا صاحب النيافة: إنك تكره أطايب الطعام كراهية شديدة.

الكاهن البدين : هنــاك من يصدقون ذلك، وســيوجد مــن يصدقون ذلك. فقط الأشــياء المعقولة هي التي لا يصدقها الناس. وجود الشــيطان، يشــك فيه الناس، أمــا أن الأرض تدور حول نفســها مثل سدادة في مجرى فهذا يصدقونه. يا للبساطة المقدسة!

راهب : (يمثل دور المازح) الدوران يســبب لــي دوارا. الأرض تدور بسرعة. يا أستاذ، اسمح لي أن أستند إليك!

(يتظاهر بأنه يترنح، ويمسك بعالم)

العالم : (مقلدا إياه) آه، نعم، لاتزال سكرى، هذه العجوز العزيزة.

(يمسك بآخر)

الراهب	:	توقف! نحن ننخلع! توقف، قلت لك.
عالم ثان	:	ها هي ذي الزهرة مقلوبة. النجدة، لا أرى منها غير نصف مؤخرتها.
		(رهبان يتلاصقون، ويتضاحكون، ويتظاهرون بأنهم يتماسكون حتى لا يقعوا من سفينة عصفت بها العاصفة)
راهب ثان	:	بشرط ألا يُلقَى بنا على القمر! يا إخواني، يبدو أن فيه جبالا ذوات إبر مخيفة.
العالم الأول	:	ما عليك إلا أن تشد ساقك.
الراهب الأول	:	ولا تنظر إلى أسفل. الدوران يجعلني مريضا.
الكاهن البدين	:	(يرفع صوته عن قصدٍ متلفتا نحو جاليليو) دوران؟ دعك من هذا! لا أحد يقدر علىً أن يجعل الكلية الرومانية تدور!
		(ضحك. من باب في العمق يدخل فلكيان من أعضاء الكلية الرومانية. الكل يسكت)
راهب	:	امتحانكم طويل جدا! هذه فضيحة!
أحد الفلكيين	:	(متضايقا) امتحاننا نحن .. كيف؟
الفلكي الثاني	:	إلى أين سيفضي بنا هذا؟ إني لا أفهم هذا الرجل الطيب كلافيوس. سيكون عجبا أن نصدق كل ما قيل خلال هذه السنوات الخمسين الأخيرة! في سنة ١٥٧٢ لمع نجم جديد في أعلى الأفلاك، الفلك الثامن، فلك الثوابت، وهو بالأحرى أشد لمعانا وأكبر من كل النجوم المجاورة، لكن لم تكد تمضي ثمانية عشر شهرا حتى اختفى من جديد وصار فريسة العدم. أهذا سبب للتساؤل: أين أزلية السماء وثباتها؟
الفيلسوف	:	لو تركناهم يعملون ما يشاءون، فسينتهي بهم الأمر إلى أن يحطموا السماء ذات النجوم على رؤوسنا.
الفلكي الأول	:	نعم، إلى أين نحن ذاهبون؟ بعد خمس سنوات حدد تيشوبراهي، الفلكي الدنماركي، طريق نجم مذنّب. منشؤه

تحت القمر، وقد خرق كل الأغلفة الفلكية الواحد تلو الآخر، وهذه الأغلفة هي الحوامل المادية لحركة الأجرام السماوية! لا مقاومة، ولا انحراف لضوئه. فهل هذا سبب للتساؤل: «أين الأفلاك الآن؟».

الفيلسوف : لكن هذا مستحيل! كيف يتأتى لكرستوفر كلافيوس، أعظم فلكي في إيطاليا وفي الكنيسة أن يتنازل لفحص هذه الترّهة؟

الكاهن البدين : هذه فضيحة؟

الفلكي الأول : علـى كل حال هو يفحصها. إنه يجلس هناك، ويفتح عينيه أمام هذه الأنبوبة الشيطانية.

الفلكي الثاني : هذا يناقض المبادئ! لا بد من خنق الشر وهو في البيضة. والأصل في هذا كله هو أننا منذ سنوات ونحن نحسب آلاف الأشياء، ومدة السنة الشمسية، وموعد كسوف الشمس وخسوف القمر، ومواقع الأجرام السماوية اعتمادا على لوحات كوبرنيكوس، مع أنه رجل مبتدع (هرطيق).

راهب : أريد أن أضع هذا السؤال: ما هو الأفضل؟ أن يحدث خسوف القمر بعد ثلاثة أيام من الموعد المذكور في التقويم، أو لا ننال النجاة الأبدية؟

راهب نحيف جدا : (يتقدم ومعه الكتاب المقدس مفتوحا، وبعصبية يربت على موضع منه بإصبعه) ماذا يقول الكتاب المقدس هاهنا؟: «قفي أيتها الشمس فوق جبعون، وأنت، أيها القمر، توقف على وادي عجلون». كيف يتأتى للسماء أن تتوقف إذا كانت لا تدور، كما يدعي هؤلاء المبتدعة؟ هل كذب الكتاب المقدس؟

الفلكي الثاني : هناك ظواهر أمرها مشكل علينا نحن الفلكيين، لكن هل من الضروري أن يفهم الإنسان كل شيء؟

(يذهب الفلكيان)

الراهب : مكان ميلاد النوع الإنساني يريدون أن يضعوه في مرتبة كوكب جوّال. فالإنسان والحيوان والنبات والتربة التي تحمله

كل هذا يحمّلونه على عربة ويجعلونه يدور حول نفسه خلال سماء خاوية. الأرض والسماء لا يوجدان في نظر هؤلاء الناس. لم تعُد ثم أرض، لأنها جرم سماوي، ولم تعد ثم سماء، لأنها مؤلفة من أجرام مشابهة للأرض. ولم يعد ثم تمييز بين الأعلى والأسفل، بين السرمدي والزائل، أما أننا زائلون، فنحن نعرف ذلك. لكنهم يقولون لنا الآن إن السماء هي الأخرى زائلة. الشمس، والقمر، والنجوم ونحن، نحن مقيمون على الأرض: هذا ما كان يقال دائما، وما يقوله الكتاب المقدس. أما الآن فالأرض هي الأخرى جرم سماوي، تبعا لما يقوله هذا الرجل، لم يعد هناك غير أجرام سماوية. وسنرى اليوم الذي سيقولون فيه: «لا فارق بين الإنسان والحيوان، الإنسان هو نفسه حيوان، وليس ثم غير دواب».

(في أثناء هذه الخطبة أخرج جالليو من جيبه حجرا، وراح يلعب به، ثم تركه يسقط)

العالم الأول : يا سيد جالليو، لقد سقط منك شيء على الأرضية.

جالليو : (وهو ينحني لالتقاط الحجر) على السقف، يا صاحب النيافة، لقد تركته يسقط على السقف.

الكاهن البدين : (ملتفتا) يا له من وقح!

(يدخل كردينال عجوز جدا، يستند إلى راهب، يُخلَى أمامه المكان باحترام)

الكردينال الهرم : ألايزالون في الداخل؟ ألا يستطيعون الإجهاز على هذه المسألة بسرعة، وهي مسألة غاية في التفاهة؟ كلافيوس هذا لا بد أنه يعرف الفلك جيدا. وبحسب ما قيل لي فإن السيد جالليو هذا يزيح الإنسان من مركز الكون إلى أطراف لست أدري ما هي. إذن هو عدو للجنس البشري، وبشكل فاضح. ولا بد أن يعامل على أنه عدو. إن الإنسان تاج الخليقة، وفي وسع أي طفل أن يقرر هذا، وأسمى وأعز مخلوقات الله. مثل هذه الأعجوبة، ثمرة مثل هذا الجهد،

كيــف يتســنى لله أن يلقي بــه على حصاة صغيــرة تائهة، تركض باستمرار خلال الســماء؟ أيرسل الله ابنه إلى مثل هذا المكان؟ وهل يمكن أن يوجد ناس فســدت عقولهم إلى حد أن يثقوا بعبيد ألواحهم الحسابية هؤلاء؟ أي مخلوق من مخلوقات اللّه يسمح لنفسه بأن يهان هكذا؟

الكاهن البدين : (هامسا) الرجل الذي تشير إليه موجود هنا في القاعة.

الكردينال الهرم : (مخاطبا جالليو) أهو أنت؟ اســمع: بصري ليس قويا، لكن ثم شــيئا أراه: ذلك الشــخص الذي أحرقناه منذ مدة، ما اسمه؟ إنك تشبهه شبها مدهشا.

الراهب : يا صاحب النيافة. لا تتحمس هكذا. فإن الطبيب...

الكردينال الهرم : (وهو يتخلص، يخاطب جالليو) أنت تريد أن تحط من قدر الأرض، مع أنــك تعيش عليها وتدين لها بكل شــيء. إنك تدنّس عشــك. ولكني، على كل حال، لن أسمح لنفسي بأن أهان. (يزيح الراهب بعنف، ويأخذ في المشي باعتزاز رائحا جائيا) أنا لســت أي شــيء على تراب كوكب ما، أدور لمدة لحظة في مكان ما! أنا أمشــي على أرض راســخة بخطىً ثابتة، والأرض لا تتحــرك، بل هي النقطة المركزية لكل ما هــو موجود، وأنا في النقطة المركزية وعين الخالق ترعاني أنا وحدي. ومن حولي، النجوم الثابتة، ترسم دوائرها، وهي مثبتة في ثمانية أغلفة بلورية، والشمس الرائعة قد خلقت لإضاءة كل شيء حواليّ، وإنارتي أنا، حتى يستطيع اللّه أن يرانــي. إذن من الواضح وضوحــا لا مجال أبدا لإنكاره أن كل شــيء يتعلق بي، بي أنا الإنســان، ثمرة مجهود الله، أنا المخلوق المركزي، المصنوع على صورة الله، باق، و...
(ينهار)

الراهب : صاحب النيافة قد وثق كثيرا بقواه.

(فــي هــذه اللحظة يفتح البــاب الذي فــي العمق. يدخل كلافيــوس العظيم على رأس فلكييه. ومــن دون أن ينطق

بكلمــة، ومن دون أن يلتفت برأســه، يخترق القاعة بخطوة سريعة. وعلى وشك الخروج يقول لأحد الرهبان:

كلافيوس : صحيح.

(يخرج، يتبعه الفلكيون. بــاب العمق يظل مفتوحا. صمت تام. الكردينال الهرم يفيق)

الكردينال الهرم : ماذا؟ هل أصدروا قرارهم؟

(لا يجرؤ أحد على الكلام)

الراهب : لا بد أن نصحب صاحب النيافة.

(يقتاد الهــرم إلى الباب الخارجي. الــكل، وهم في حيرة تامــة، يغادرون القاعة. راهب قصيــر في لجنة كلافيوس يتوقف قرب جالليو)

الراهب القصير : (خلســة) يا ســيد جالليو، إن الأب كلافيــوس قال قبل أن يرحــل: «الآن على اللاهوتيين أن يعملوا على لصق كراتهم السماوية!». لقد كسبت أنت.

جالليو : (محاولا إيقافه) لم أكسب أنا، بل العقل هو الذي كسب.

(الراهــب القصير صار بعيدا. جالليــو بدوره يرحل. على عتبــة الباب يلتقــي كاهنا كبيــرا، هو الكردينــال المكلف بالتفتيــش. يصحبه فلكي. جالليــو ينحني، وقبل أن يخرج يهمس بالسؤال للحاجب)

الحاجب : (مجيبا باللهجة نفســها) صاحب النيافــة الكردينال كبير المكلفين بالتفتيش.

(الفلكي يقود الكردينال إلى المقراب)

* * *

(٧)

(لكن محكمـــة التفتيش تقرر حرمان نظام كوبرنيكوس في ٥ مارس سنة ١٦١٦

في روما كان جَلِلّيو

ضيفا في قصر نيافته

بالأكل الفاخر والخمر

نفحوه، مقابل هيّنة

قصـــر الكردينال بِلّرْمــين(*) في روما. حفلـــة راقصة في أوجها. في الدهليز، حيث كاتبان دينيان يلعبان بالشطرنج، ويكتبان ملاحظات عن المدعوين، جالليو يُتَلَقّى بتصفيق من جماعة صغيرة من الســيدات والســادة اللابسين الأقنعة. تصحبه ابنته فرجينيا وخطيبها لودفكو مرسيلي)

فرجينيا : لن أرقص إلا معك، يا لودفكو.

لودفكو : دبّوس الكتف غير محكم.

جالليو : «دعي الغلالة، يـا تاييس، تنزلق. لا تعدليها، ففي إخلالها فـتنٌ للراقصين في ضوء الشـموع، ولي تدعـو إلى ظلمة الأيكات والظّلَل»

فرجينيا : تحسّس قلبي.

جالليو : (واضعا يده على قلبها) إنه يخفق.

فرجينيا : أود أن أبدو جميلة.

جالليو : بأي ثمن، وإلا فسيكفون عن تصديق أن الأرض تدور.

(*) روبرت بلرمين. Robert Bellarmin (١٥٤٢ – ١٦٢١): يسوعي، عُين في سنة ١٥٩٢ مديرا للكلية الرومانية في روما، وصار في سنة ١٥٩٩ كردينالا. وفي سنة ١٦٣٠ رسم قديسا. وله كتاب أثار مساجلات شديدة، عنوانه: «مناقشات حول الشُبه المواجهة ضد العقيدة المسيحية». وذلك ردا على المبتدعة في هذا العصر.

لودفكو : لكنك تعلم جيدا أنها لا تدور. (جالليو يضحك) روما لم تكن تتحدث إلا عنك. ولكن ابتداء من هذا المساء فسيكون الحديث، يا سيدي، عن ابنتك.

جاللیو : يقولون إنه ليس من الصعب أن يبدو المرء جميلا في روما إبان فصل الربيع. وحتى الآن تبدو عليّ هيئة أدونيس، مع شيء من الكرش. (للكاتبين) طلبوا إليّ أن أنتظر هنا صاحب النيافة. (لفرجينيا ولودفكو) اذهبا، واستمتعا.

(يذهبان للاشتراك في الرقص من باب العمق. ثم تعود فرجينيا مسرعة)

فرجينيا : يا أبي، حلّاق شارع النصر حلق لي قبل غيري وترك أربع سيدات جميلات ينتظرن. لقد تَعَرّف اسمَك في الحال.

(تخرج)

جاللیو : (وهو ينظر إلى الكاتبين يلعبان الشطرنج) كيف لاتزالان تلعبان الشطرنج على الطريقة القديمة؟ المجال فيها محدود. هاكما كيف يُلعب اليوم: تُجْرَى الحجارةُ على طول ساحة الشطرنج، الطابية هكذا (يمثل بحركة)، والمجنون هكذا، والملكة هكذا، وهكذا. بهذا يتسع المجال، ويمكن تركيب عمليات وخطط.

أحد الكاتبين : هذا ليس في متناول مرتباتنا. نحن لا نستطيع إلا نقلات خفيفة.

(ينقل حجرا من خانة)

جاللیو : بالعكس يا صاحبي، بالعكس! لو عشت على قدم كبيرة، دفعوا لك ثمن أحذية طويلة. لا بد من التماشي مع الزمن، يا سادة. كفوا عن مساحلة الشواطئ، واندفعوا في عُرْض البحر.

(الكردينال الهرم يخترق المسرح، بصحبة راهب. يلمح جاللیو، يمر بالقرب منه، ثم يلتفت، وعليه أمارات التردد، ويحيي. يجلس جاللیو. ومن قاعة الرقص يصل مطلع

القصيدة(*) المشـهورة التي ألفها لورنتسو الماجد، لورنتسو دي مدتشـي، وهي قصيدة في أن كل شـيء مآله الزوال، ويغنيها صبيان:

الصبيان : (يغنون)

أنا من رأيت الورد يذبل أو يموت

أوراقه النضرات يلحقها الذبول

وعلى تراب البرد شاحبة، فقلت:

كمْ خادعٌ صَلَفُ الشباب!

جاليليو : روما. حفلة عظيمة؟

الكاتب : هذا أول كرنفال بعد سنوات الطاعون. كل البيوتات الكبيرة فـي إيطاليـا ممثلة هذا المسـاء: آل فلاّنـي، آل نوكولي، آل سـولدانييري، آل كانـي، آل لكـيّ، آل استنسـي، آل كولومبيني...

الكاتب الثاني : (مقاطعا إياه) صاحبا النيافة، الكردينال بلرمين والكردينال بربريني.

(يدخل الكردينال بلّرمين، والكردينال بربريني وبواسطة يد يمسكان أمام وجهيهما بقناع خروف وقناع حمامة)

بربريني : (مشيرا بالسـبابة إلى جاليليو) «الشـمس تشرق ثم ترحل عائدة إلى مكانها».

هكذا قال سُلَيْمان، فما قولك يا جاليليو؟

جاليليو : حينمـا لم أكـن أطول من هكذا (حركة بيـده)، يا صاحب النيافـة، كنـت على سـفينة فصحـت قائلا: «الشـاطئ يتحـرك!». واليوم أنا أعلم أن الشـاطئ كان سـاكنا، وأن السفينة هي التي كانت تتحرك.

(*) هي قصيدة كورنتو Corinto.

بربريني : لا بأس، لا بأس. ما يشــاهد، يا بلّرمين، مثلا قبة الســماء التي تــدور، ليس من الضروري أن يكون صحيحا، كما في مثل السفينة والشاطئ... لكن ما هو صحيح، مثل أن الأرض تدور، هذا ما لا يمكن أن يشاهد. لا بأس! وفي تلك الأثناء فإن توابع المشتري ستتحطم عليها أسنان الفلكيين. كان من ســوء حظي، يا بلّرمين، أن أدرس شيئا من علم الفلك. إنه يلتصق بالجلد مثل الجرب.

بلّرمين : لنمش مع زماننا، يا بربريني. إذا كانت الخرائط السماوية المبنيــة على أســاس افتراض جديد من شــأنها أن تجعل الملاحة أســهل على بحّارتنا، فمــن رأيي أنه لا بأس عليهم من اســتخدامها. لكن الشيء الذي لا نحبه هو الآراء التي تُكَذّب الكتاب المقدس.

(يحيي بيده في اتجاه قاعة الرقص)

جالليو : الكتــاب المقدس؟ «من يحتفظ بحَبّته، يلعنه الناس»، (هكذا تقول) أمثال سليمان.

بربريني : «الرجل العاقل يستر علمه» (هكذا تقول) أمثال سليمان.

جالليو : «أينما تكن الثيران تكن القذارة. لكن قوة الثيران فيها فائدة كبيرة».

بربريني : «من يكبح عقله أفضلُ ممن يستولي على المدن».

جالليو : «لكــن حين تضعف الروح، يجف نخاع العظام». (بعد برهة صمت) «أوَ لا يرفع الحق صوته؟».

بربريني : «أيمكن المرء أن يمشــي على فحم متقد من دون أن تحترق قدمة؟». مرحبا بك في روما، يا عزيزي جالليو. هل تعرف تاريخ نشأتها؟ تقول الخرافة إن طفلين تلقيا الغذاء والسكن من ذئبة. ومنــذ ذلك اليوم، فإن على كل أبنائها أن يدفعوا للذئبــة ثمن اللبن الذي يشــربونه. وفــي مقابل ذلك فإن الذئبــة تهيئ كل ألوان اللذات، الســماوية منها والأرضية:

من مناقشـــة صديقي العلامة بلرّمـــين، حتى ثلاث أو أربع غوان ذوات شهرة دولية. هل تريد أن أعرفك بهنّ.

(يقتاد جاลليو إلى الداخل ليرى قاعة الرقص. جاลليو يتبعه كارها)

بربريني : ألا تريد حقا؟ تودّ مناقشـــة جـــادة. ليكن! هل أنت واثق، يا عزيزي جاลليو، إنكم معشـــر الفلكيين، لا تَسْعون إلى مجرد تسهيل الأمور؟ (يقتاده إلى مقدم المسرح) في نظرك الأمر كله يرجع إلى دوائر أو قطاع ناقصة، وســـرعات منتظمة، وبالجملة إلى حركات بسيطة، متصورة على صورة عقلك. لكن لو كان الله قد شـــاء أن يحرّك نجومه هكذا؟ (بإصبعه يرســـم في الهواء شـــكلا غاية في التعقيـــد، وذلك بتغيير سرعة الحركة) فماذا عسى ستكون قيمة حساباتكم؟

جاลليو : يا صاحب الســـيادة! لو كان الله قد بنى العالم هكذا (يكرر الحركة التي رسمها بربريني)، لكان أيضا قد بنى أمخاخنا هكذا (يكرر الحركة نفســـها)، بحيث يكون هذا المسار هو أبسط المسارات. إن لي في العقل ثقة.

بربريني : أنا أرى أن للعقل حدودا. إنه لا يقول شيئا. إنه من الاحتشام بحيث لا يريد أن يجيب بأن عقلي أيضا له حدود.

(يضحك ويعود إلى الشرفة)

بلّرمين : العقـــل، يا صديقي العزيز، لا يذهب بعيـــدا. ونحن لا نرى من حولنا غير الاشتباه والشر والضعف. فأين الحق في هذا كله؟

جاลليو : (بغضب) إني أثق بالعقل.

بربريني : (مخاطبا السكرتيرين) لا، لا، لا تسجلا شيئا، هذا حديث بين أصدقاء في موضوع علمي.

بلّرمين : فكـــر فيما اقتضاه آباء الكنيســـة وآخرون كثيرون من جهد وتأمل لإدخال بعض المعنى في مثل هذا العالم (أتجادل في أنـــه عالم فظيع؟). فكر في وحشـــية أولئك الذين يجعلون

الفلاحـــين وهم نصف عـــراة يركضون فـــي مزارعهم في مقاطعة كمبانيا والســـياط تلسع ظهورهم، فكّر في بلاهة هؤلاء المساكين الذين يقبلون أقدامهم شكرا لهم.

جالليو : هذا عار! وأنا قادم إلى هنا، شاهدت...

بلّرمين : كان لا بـــد أن نعـــزو حكمة إلى مثل هـــذه الظواهر التي لا نفهمها (وهي مادة الوجود نفســـها) لهذا أحلنا مسؤوليتها على موجود فوقنا، وقلنا إنها تخدم غرضا محددا، وإن كل شيء يتم وفقا لخطة رائعة، لا لأن هذا قد أعاد الطمأنينة إلى النفوس، لكنكـــم الآن تتهمون هذا الموجود الأعلى بأنه ليـــس لديه أفـــكار واضحة عن حركات العالم الســـماوي، بينمـــا أنتم لديكم عنه أفكار واضحة كل الوضوح فهل هذا إنصاف؟

جالليو : (شارعا في التفسير) أنا ابن للكنيسة مطيع...

بربريني : هذا رجل مخيف حقا! إنه يريد، بكل براءة، أن يقرر أن الله هو الذي ارتكب أسوأ الأخطاء في علم الفلك. والخلاصة: هل الله لم يدرس فلكه بعناية قبل أن يؤلف الكتاب المقدّس؟ يا صاحبي!

بلّرمين : ألا يقول لك الاحتمال، لك أنت، أن الخالق لا بد يعرف عن خليقته خيرا مما يعرف المخلوقون؟

جالليو : لكن، يا ســـادة، في وسع الإنســـان أن يسيء تفسير الكتاب المقدس، وحركة الأفلاك معا.

بلّرمين : لكن طريقة تفســـير الكتاب المقدس: هذا ميدان يرجع في نهايـــة الأمر إلـــى اللاهوتيين التابعين إلى أمنا المقدســـة: الكنيسة. هل نحن متفقون على هذا؟ (جالليو يصمت) أنت ترى جيدا: هاأنت ذا تســـكت. (يوجه إشارة إلى الكاتبين) يا ســـيد جالليو! إن الديوان المقدس قرر في هذه الليلة أن نظام كوبرنيكوس – الذي يجعل من الشـــمس المركز الثابت

للعالم، بينما الأرض متحركة وليست مركز العالم - هو رأي أحمق غير معقول، مبتدع، ويسيء إلى الإيمان. وأنا مكلف بتحذيرك كي تتخلى عن هذا الرأي. (مخاطبا الكاتب) أعِدْ ما قلتُه.

الكاتب : أبلغ صاحب النيافة الكردينال بلرمين المذكور أعلاه جالليو جاليلاي أن «الديوان المقدس قرر أن نظام كوبرنيكوس- الذي يجعل من الشمس المركز الثابت للعالم، بينما الأرض متحركة وليست مركز العالم - هو رأي أحمق، غير معقول، مبتدع، ويسيء إلى الإيمان. وأنا مكلف بتحذيرك كي تتخلى عن هذا الرأي».

جالليو : ما معنى هذا؟

(من قاعة الرقص تسمع مقطوعة أخرى من القصيدة تنشدها جوقة من الصبيان)

الصبيان : (يغنون)

قلتُ: أبهى العُمْرِ يمضي وبسرعة

فاقطفِ الوردَة إبّان الربيعْ

(بربريني يشير على جالليو بالسكوت حتى ينتهي الغناء. يصغون)

جالليو : لكن الوقائع؟ لقد فهمت أن الفلكيين في الكلية الرومانية قد اعترفوا بأن أرصادي صحيحة.

بلّرمين : وعبّروا عن رضاهم العميق بعبارات كلها إطراء لك.

جالليو : لكن توابع المشتري؟ وأطوار الزهرة؟

بلّرمين : إن المجمع المقدس جدا لما قرر قراره لم يأخذ في حسابه هذه الاعتبارات الخاصة.

جالليو : ومعنى هذا أن كل بحث علمي من الآن فصاعدا...

بلّرمين : مكفول تماما، يا سيد جالليو. وهذا يوافق مذهب الكنيسة

الـــذي يقول اننا عاجـــزون عن المعرفة، لكـــن البحث مباح لنـــا. (يحيي لحظةً أحد المدعويـــن في قاعة الرقص) هذا النظام، شأنه شأن أي نظام آخر، لك مطلق الحرية في أن تبحث فيه على شـــكل افتراض رياضي. إن العلم هو الابن الشرعي والحبيب للكنيسة، يا ســـيد جالليو. ولا أحد منا يفترض جديا أنك تريـــد أن تقضي على الثقة التي يوليها الناس للكنيسة.

جالليو : (متضايقا) إن الثقة تفنى من كثرة الالتجاء إليها.

بربريني : آه، هكذا؟ (يربّت على كتفه وهو يقهقه. ثم ينظر إليه بتعال ويخاطبه بشـــيء من التودد) لا تَرْمِ الطفلَ مع ماء الحوض، يا عزيزي جالليو. وهذا أيضا ليسَ من شـــيمتنا. إننا أحوج إليك منك إلينا.

بلّرمين : إنني أتحرق إلى تقديم أكبر رياضي في إيطاليا إلى مندوب الديوان المقدس الذي يحمل لك أعلى التقدير.

بربريني : (ممســـكا بالذراع الأخـــرى لجالليو) بهـــذه الكلمات صار حمَـــلا وديعا. وأنت، يا عزيـــزي، للظهور هنا كان عليك أن تتخفى في زي مفســـر بريء للحقائق المقررة. وقناعي هو الذي يخول لي اليوم بعض الحرية. في هذا الزي تستطيع أن تســـمعني أهمس قائلا: «لو لـــم يوجد الرب لكان علينا اختراعه». والآن فلتســـتعد القناع. يا لجالليو المسكين، إنه لا يلبس قناعا.

(يحيطان بجالليو ويقتادانه إلى قاعة الرقص)

الكاتب الأول : هل سجلت الجملة الأخيرة؟

الكاتب الثاني : أنا بصددها. (يكتبان بانشـــغال شديد) هل سجلت الجملة التي قال فيها إنه يثق بالعقل؟

(يدخل الكردينال كبير محكمة التفتيش)

كبير المحكمة : هل جرت هذه المحادثة؟

الكاتب : (كأنه إنسان آلي) أولا السيد جالليو جاء مع ابنته. وهذه خطبت اليوم إلى السيد... (كبير محكمة التفتيش يقطع كلامه بحركة منه) ثم إن السيد جالليو أخبرنا بالطريقة الجديدة للّعب بالشطرنج، وهذه الطريقة تخالف كل القواعد، وفيها الأحجار تحرَّك خلال كل لوحة الشطرنج.

كبير المحكمة : (مقاطعا) المحضر!

(الكاتب يقدم إليه المحضر. يجلس الكردينال لتصفُّحه. سيدتان شابتان مُقنّعتان تخترقان المسرح، وتنحنيان انحناءة خفيفة حين مرورهما أمام الكردينال)

إحداهما : من هذا؟

الأخرى : الكردينال كبير محكمة التفتيش.

(تمضيان وهما تحاولان كتم ضحكة شديدة. تدخل فرجينيا، تتلفت حواليها باحثة عن شخص)

كبير المحكمة : (وهو في زاوية) ماذا يا ابنتي؟

فرجينيا : (ولم تكن قد أبصرته، تقفز مفزعة) أوه، يا صاحب السيادة!

(كبير محكمة التفتيش، من دون أن يرفع بصره، يقدم إليها يده اليمنى. فرجينيا تقترب، وتركع وتقبّل الخاتم)

كبير المحكمة : ليلة رائعة. اسمحي لي بأن أتقدم إليك بالتهاني بمناسبة خطبتك. خطيبك من أسرة عظيمة. هل ستبقين عندنا؟

فرجينيا : ليس في الحال، يا صاحب السيادة. هناك الكثير من الاستعدادات للزواج.

كبير المحكمة : إذن سترحلين إلى فيرنتسه مع السيد والدك. أنا سعيد لهذا كل السعادة. وأتصور أن السيد والدك في حاجة شديدة إليك. والرياضة رفيقة عبوس، أليس كذلك؟ في مثل هذا الجو فإن مخلوقة مملوءة بالحياة كفيلة بتغيير كثير من الأشياء. ومن السهل جدا أن يضل المرء في كل هذه العوالم

السماوية، التي تبدو شاسعة، حين يكون المرء عقلا كبيرا.

فرجينيا : (وقد خنقها الانفعال) كم أنت كريم، يا صاحب السيادة! إني كما تعرف لا أفهم شيئا تقريبا في هذه الأمور.

كبير المحكمة : حقا؟ (يضحك) أسرة صانع الحلوى لا تأكل الفطائر، أليس كذلك؟ وسيُسَر السيد والدك أن يعلم أنني أنا، يا بنيتي العزيزة، الذي علمك ما تعلمين عن العوالم السماوية. (وهو يتصفح المحضر) أرى هاهنا أنه تبعا لرأي المجددين المحدثين، ووالدك هو زعيمهم المعترف به في كل مكان، وهو عقل كبير من بين كبار العقول، فإن تصوراتنا الحالية لأهمية أرضنا العتيقة العزيزة مبالغ فيها. ومنذ عصر بطلميوس، وهو حكيم قديم، حتى يوم الناس هذا، كان يقدر مجموع الخليقة، أعني مجموع كرة البلّور التي فيها تحتل الأرض المركز، بنحو عشرين ألف مرة قطر الأرض. وهي مساحات جميلة، لكنها في نظر هؤلاء المجددين صغيرة جدا. وفي نظرهم أن الكون أوسع بكثير جدا، وأن المسافة بين الأرض والشمس، وهي مسافة محترمة جدا، فيما كان يبدو لنا، صارت بهذا ضئيلة جدا جدا إذا ما قورنت بالمسافة التي تفصل بين أرضنا المسكينة وبين النجوم الثابتة في الغلاف الأقصى، بحيث يمكن إسقاطها من حساباتنا! وهنا ينبغي أن نقول إن المجددين لا يعيشون على قدم كبيرة.

(فرجينيا تضحك، وكذلك يضحك كبير محكمة التفتيش)

كبير المحكمة : (مواصلا كلامه) والواقع أن مثل هذه الصورة للعالم، تبدو بالنسبة إليها تلك التي نقر بها حتى الآن مجرد صورة مصغرة جدا، لا تصلح إلا لتزيين جِيد جميل مثل جيد بعض الفتيات، ولهذا فإن هذه الصورة للعالم، قد أثارت ثائرة الأعضاء البارزين في الديوان المقدس. إنهم يخشون أن يضل السبيل في هذه المساحات الشاسعة أحد الكهنة

أو أحد الكرادلة أنفسهم. بل البابا نفسه، بكل سلطانه، قد يضـــل في مثل هذا النظام. نعم، في هذا ما يثير الضحك، لكني مع ذلك سعيد بأن أراك في كنف أبيك العظيم، الذي نُكـــنّ له جميعـــا كلّ احترام، يا بنتي العزيزة. وأنا أســـائل نفسي عما إذا كنت أعرف من يتلقى منك الاعتراف...

فرجينيا : الأب كرستوفورو، في كنيسة القديسة أورسولا.

كبير المحكمة : نعم، أنا ســـعيد جـــدا أن أعلم أنك ســـتكونين في صحبة والدك. إنه في حاجة إليك، ربما يصعب عليك أن تتصوري السبب في هـــذا، لكـــن سيأتي اليـــوم عاجـــلا أو آجـــلا. أنت لاتزالين صغيرة، مملوءة بالحيوية، وليس من الســـهل دائما تحمل العظمة بالنســـبة إلى أولئك الذين وهبهم الله إياها. لا، ليس من الســـهل دائما. لا، مهما يكن عظيما، فإنه في حاجة إلـــى الدعاء .. أليس كذلك؟ ولكـــن هأنذا أعوقك، يا بنيتـــي العزيزة، وأثير الغيرة في نفـــس خطيبك، وربما أيضا في نفس أبيك، وأنا أحدثك عن النجوم بعبارات ربما صارت عتيقة، وهذه هي الطامّة الكبرى. عودي لاستئناف الرقص بسرعة، لكن لا تنسي أن تحيي باسمي الأب الطيب كرستوفورو.

(فرجينيا تمضي مسرعة، بعد انحناءة عميقة)

* * *

(٨)

(مناقشة.
في سجلّ «الحرمان» ألفاه يقرأ
راهبا يقرأ القرار الرهيبا
راهبا ينشر العلوم ويبغي،
وهو ابن الفلاح، علما جديدا

في روما. بقصر سفير فيرنتسه، جاليليو يصغي إلى الراهب الشاب الذي بلّغه - بعد جلسة الكلية الرومانية - كلمة الفلكي البابوي)

جاليليو : هيا، تكلم! الثوب الذي تلبسه يخول لك أن تقول أي شيء

الراهب الشاب : درستُ الرياضيات، يا سيد جاليليو.

جاليليو : سيكون هذا أمرا حسنا، لو أن هذا دعاك إلى الإقرار بأن ٢ + ٢ تساوي أحيانا ٤.

الراهب الشاب : يا سيد جاليليو! منذ ثلاث ليال وأنا لا أستطيع النوم. ذلك أني لم أستطعْ التوفيق بين القرار الذي قرأته، وبين توابع المشتري التي شاهدتها. لهذا قررت اليوم أن أتلو قدّاسي ثم أجيء اليك.

جاليليو : لتقول لي إن المشتري ليست له توابع؟

الراهب الشاب : كلا. لقد اقتنعت بالأسباب الموجبة للقرار. لقد كشف لي الأخطار التي تتعرض لها الإنسانية من جراء البحث المنطلق بغير قيود، وقد قررت أن أترك علم الفلك. لكني حرصت على أن أعرض عليك الدواعي التي يمكن أن تحمل حتى الفلكيّ نفسه على التخلي عن إتمام بناء النظرية التي تعرفها.

جاليليو : أعتقد أن في وسعي القول بأن هذه الدواعي معروفة لديّ.

الراهب الشاب	:	أنا أقــدر شــعورك المرير. أنــت تفكر في تلك الوســائل الاستثنائية التي تملكها الكنيسة.
جالليو	:	لا تفزع من النطق بالكلمة: أدوات التعذيب.
الراهب الشاب	:	لكني أود أن أذكر دواعي أخرى. واسمح لي بأن أتحدث عن نفسي: لقد نشأت في أسرة فلاحين في إقليم كمبانيا. وهم قوم بســطاء جدا، يعرفون كل ما يمكن معرفته عن أشجار الزيتــون، وفيما عدا هذا لا يكادون يعرفون شــيئا. والآن، حين أشــاهد دورات الزهرة، يخيل إليّ أن أهلي يجلســون فــي صحن الدار مع أختي وهم يشــربون حســاء بالجبن. ومن فوقهم أرى ألواح الســقف التي سوّدها الدخان طوال مئات الســنين، وأرى تفاصيل أياديهم الهرمة التي شوهها العمل، والملفقة بين أصابعهم. ليســت حياتهم بالســعيدة، لكن في ثنايا شــقائهم نفسه، ثم مبدأ للنظام. هناك أدوار مختلفــة: دور للتنظيف الكبير، ودور للمواســم في مزارع الزيتون، ثــم دور دفع الضرائب. وثــم انتظام في كل هذه المصائب التي تنقض عليهم. وإذا كان ظهر أبي ينحني فلا يتــم هذا دفعة واحدة، بل بالتدريج مع كل ربيع يقضيه في مــزارع الزيتون، كما أن الولادات التي تقلل شــيئا فشــيئا مــن أنوثة أمي، تتم في فترات محــددة. والقدرة على جر السلال على طول الطريق الحافل بالحصباء، والقدرة على إنجــاب الأولاد، بل والقدرة على الأكل – هما يســتمدانها من الشــعور بالدوام والضرورة، هذا الشــعور الذي يُوَلّده في نفسيهما منظر الشمس، ومنظر الأشجار التي تخضرّ كل عام، والكنيســة الصغيرة، وآيــات الكتاب المقدس التي يستمعون إليها في أيام الآحاد. لقد تلقوا توكيدا بأن الرب ينظر إليهم نظرة متســائلة، شــبه قلقة، وبأن مسرح هذا العالم قد نُظّم من حولهم، حتى يســتطيعوا، وهم الممثلون، أن يبرهنوا على أدائهــم لأدوارهم، صغيرة كانت أو كبيرة.

فماذا عســى أن يقول أهلي لو سمعوني أقول إنهم يعيشون على حصاة صغيرة تدور باستمرار في الفضاء، وتدور حول نجم آخر، حصاة بـين حصى عديد جدا، حصاة لا أهمية كبيرة لها؟ فيم يعملون إذن، وفيم يتحلون بكل هذا الصبر، وفيم يتعلقون كل هذا التعلق بشقائهم؟ وما الفائدة بعدُ في الكتاب المقدس، الذي فسّـر كل شيء، وبرر كل شيء على أنه ضـروري: العرق، والصبر، والجـوع، والخضوع، بينما اليوم يكتشـف فيه الكثير من الأخطاء؟ كلا، يخيّل إليّ أني أشاهد نظرتهم اللهيفة والملفقة تسقط على حجر الأرضية، وأشاهد كيف يحسون بأنهم خُدعوا وغُرِّر بهم. سيقولون: «وإذن لا أحد يرعانا؟ أعلينا نحن أن نرعى أنفسـنا ونحن جهلـة، عجائز، مسـتهلكون؟ ألا دور لنا غير دورنا البائس هذا على الأرض، هذا الجرم السماوي الصغير جدا الذي لا يسـتقل بوجوده وليس محورا لشيء؟ أليس هناك معنى إذن لشـقائنا: فالجوع سـيكون فقط مجرد نتيجة لكوننا لم نأكل، وليـس امتحانا لقوتنا، والمجهود سـيكون مجرد نتيجة للانحنـاء وحمل الأثقال، وليـس مصدرا للفضائل والحسـنات؟ أتفهم الآن لماذا أقرأ في قرار المجمع المقدس شفقة سخية، وإحسانا لاحد له؟

جاليليو : الشـفقة! الإحسان! لعلك تريد أن تقول: «لا شيء لهم، كل الخمر قد شـرب، وشـفاههم جفـت .. إذن فليقبلوا ثوب رجل الدين». لكن لماذا ليس ثم شـيء لهـم؟ ولماذا النظام فـي البلاد ليس شـيئا آخر غير نظام الخزانـة الفارغة، والضرورة ليسـت إلا أن يقتل المرء نفسه في الشغل؟ وكل هذا وسط بساتين كروم حافلة بالعناقيد على تخوم حقول قمح وفيـر؟! إن فلاحيكم في إقليـم كمبانيا يدفعون ثمن الحروب التي يشنها خليفة يسوع الرقيق الوديع، يشنها في إسـبانيا وألمانيا. لماذا يجعل مـن الأرض مركزا للكون كله؟

من أجل أن يصبح عرش القديس بطرس على الأرض مركز كل شـــيء! النقطة الثانية هــي المهمة. أنت على حق: ليس المهم هو الكواكب، بل الفلاحــون في كمبانيا. ولا تحدثني بعد هذا عن جمال الأشياء التي ذهّبتها وخضّرتها السنون. أتعرف كيف ينتــج المحار اللؤلئي لؤلؤته؟ إبان مرض يمكن أن يموت منه يُدخل المحار في كرة من المخاط جسما غريبا يهيجــه، حبة رمل مثلا. ويكاد يموت في هذه العملية. ومن رأيي أني أفضل المحار الســليم، وتبــا للؤلؤة. إن الفضائل ليست مرتبطة بالشقاء، يا صديقي. لو كان أهلك يعيشون في رخاء ويســر، لكان في وســعهم أن يمارســوا فضائل الرخاء واليســر. إن فضائل المنهوكين تنشــأ من الأراضي المنهوكة، وهذا شـــيء لا أريده. يا عزيــزي، مضخات الماء التي اخترعتها يمكن أن تحدث معجزات أفضل من عملهم الوضيع، عمل المســتعبد، العمل الذي يتجاوز طاقة البشر. «تناســلوا تكاثــروا»، لأن الحقول بقيــت عقيمة والحروب تقضي عليكم. هل يجب عليّ أن أكذب على هؤلاء الناس؟

الراهب الشاب : (في حالة تأثر شديد) إنها أسباب عالية جدا تفرض علينا أن نسكت: الطمأنينة الباطنة للذين يتألمون!

جالليو : هل تريد أن ترى ساعة من صنع اتشلّيني Cellini، وضعها ســائق الكردينال بلّرمــين هنا هذا الصبــاح؟ يا صديقي العزيز، إن السلطة تقدم إليّ – من أجل مكافأتي على ترك أهلك الأعزاء في طمأنينة، مثلا – أقول إن الســلطة تقدم إلــيّ الخمر الذي حصــده أهلوك بعــرق جبينهم، جبينهم الــذي خلق على صورة الرب كما هو معلوم. لو وافقت على أن أســكت، فسيكون ذلك لأسباب حقيرة خسيسة: هي أن أعيش في سلام، من دون اضطهاد، الخ...

الراهب الشاب : يا سيد جاللِيو! أنا قسيس.

جالليو : وأنت أيضا عالم طبيعة. ولقد شاهدت بعينيك أن للزُّهَرة أطوارا. تعال انظر من النافذة. (يشير إلى النافذة) أترى هناك برياب(*) الصغير على شاطئ الينبوع، بالقرب من شجرة الغار؟ إله البساتين، والطيور واللصوص، هذا الجلف الفاجر الذي عمره أكبر من ألفي سنة!... إنه لم يقل مثل هذا القدر من الأكاذيب. ليكن لا نتحدث عن هذا، أنا أيضا ابن للكنيسة. لكن، هل تعرف الأهجية الثانية لهوراس؟ إنني أقرؤها هذه الأيام، فإنها تحدث شيئا من الاتزان. (يتناول كتابا صغيرا). إنه يجعل برياب هذا يتكلم، وكان تمثالا صغيرا في حدائق الإسكولينو. وهذا مطلعها:

«جذع من شجر التين، وخشب قليل الفائدة

هكذا كنت حينما تساءل النجار

هل يصنع بريابَ أو كرسيا

واختار أن يصنع الإله...»

هل تعتقد أن هوراس كان سيوافق على أن يُمْنَع مثلا من الكرسي، ويوضع في قصيدته مقعد؟ كذلك يا سيدي، سيجرح إحساسي بالجمال إذا حرمت الزهرة من أطوارها، في تصوري للعالم! إننا لا نستطيع أن نخترع ميكانيكا لدفع وضخّ الماء من الأنهار إذا لم ندرس الميكانيكا الكبرى، تلك التي تتجلى أمام عيوننا، ميكانيكا الأجرام السماوية. ومجموع زوايا المثلث لا يمكن أن يعدل تبعا لهوى وحاجات الكلية المقدسة. ومدارات الأجرام التي تجول في الفضاء لا أستطيع أن أحسبها بطريقة توضح أيضا أشواط جري الساحرات على أيادي المكانس.

الراهب الشاب : أوَ لا تظن أن الحقيقة، إذا كانت هي الحقيقة، ستفرض نفسها حتى من دوننا؟

(*) برياب Piriape إله الخصب عند اليونان وإله البساتين والكروم والولادة.

جاليليو : لا، لا، لا. لا يفـرض نفسـه إلا الجـزء مـن الحقيقة الذي نفرضه نحن. إن انتصار العقل هو انتصار الذين يفكرون. إن فلاحيكم في كمبانيا أنت تصفهم كما تصف الطحالب على سـقوف أكواخهم، هذا ما أنت عليه! فمن ذا الذي سـيخيل إليه أن مجموع زوايا المثلث يمكن أن يتعارض وحاجات هؤلاء النـاس؟ حتى لو لم يتحركوا، ولو لـم يتعلموا كيف يفكرون، فـإن أروع أجهزة الريّ لن تفيدهم في شـيء. فليذهب إلى الشيطان صَبْرُ أهلك الإلهي. لكن أين غضبهم الإلهي؟

الراهب الشاب : إنهم متعبون.

جاليليو : (راميـا إليه بمخطوط كبير) هل أنت فيزيائي، يا بني؟ في هذا الكتاب عرفت الأسباب التي من أجلها يتحرك المحيط فـي المد والجزر. لكن عليك ألا تقرأ، فاهم؟ أوه، هاأنت ذا تقـرأ؟ إذن أنت فيزيائي (الراهب الشـاب أكب على قراءة المخطوط) تفاحة تسـقط من شـجرة المعرفـة، وهاهو ذا يبتلعها. لقد حكم على نفسـه بالهلاك الأبدي، لكن الأمر أقـوى منه، وهاهو ذا يبتلعه، هذا المسـكين. ويخطر ببالي أن أقدر أنني لا أمانع في أن أحبس نفسـي في كهف تحت الأرض بعشـرات الأمتار، في سـجن لا ينفذ إليه النور، لو تعلمت بهذا الثمن ما هو النور. وأسـوأ ما في الأمر أن ما أعرفه هو أقوى مني، وعليّ أن أقوله للآخرين. مثل عاشق، أو سـكران، أو جاسوس. هذا فسـاد تام. هذه رذيلة، ولا شيء غير هذا، وهذا سـينتهي نهاية سيئة. كم من الوقت سأقدر على إعلان ما أعرف، وإن كان في ذلك إذكاء النار التي ستحرقني؟ تلك هي المسألة.

الراهب الشاب : (وهو يريه صفحة من المخطوط) هنا عبارة لا أفهمها.

جاليليو : سأشرحها لك، سأشرحها لك.

* * *

(٩)

(بعد ثماني سـنوات من الصمـت، كان تولي «بابا» جديد، هو في الوقت نفسـه عالم، مشجعا لجاليليو على استئناف أبحاثه في الموضوعات المحرّمة: بقع الشمس.

كَتَمَ الحقيقةَ مُدّةً
ولسانهُ لم ينطق
إبّانَ أعوام ثما
نية، ولكن لم يُطقْ
للحق صاح مُرَدِدًا:
يا أيها الحق انطلق

في فيرنتسه، في منزل جاليليو. تلاميذ جاليليو: فدرتسوني، والراهب الشـاب، وأندريا سـارتي، وقد صار الآن شابا، اجتمعوا لمشـاهدة تجربة. جاليليو، وهو واقف، يقرأ كتابا، وفرجينيا والسيدة سارتي تخيطان ثياب العرس)

فرجينيا : خياطة ثياب العرس أمر مسلّ. هذا المفرش سيصلح لمائدة كبيرة في المـآدب. إن لودفكو يحب دعوة الضيوف. لكن لا بد من إتقانه، لأن أمه تلاحظ أقل غرزة رديئة. إنها غير راضية عن كتب والدي تماما مثل الأب كرستوفورو.

السيدة سارتي : إنه لم يؤلف كتابا منذ سنوات.

فرجينيا : أعتقـد أنـه أدرك أنه أخطأ. فـي روما، شـرح لي رجل دين كبير جدا كثيرا من الأشـياء المتصلـة بعلم الفلك. إن المسافات أوسع مما ينبغي.

أندريا : (وهو يكتب على السّـبورة برنامج اليوم) «يوم الخميس بعد الظهر: الأجسام الطافية». لا بد لنا من ثلج، وكمية من الماء في حوض وميزان، وإبرة من الحديد.

(يذهـب للبحث عن هذه المواد. والآخرون يدرسـون درس اليـوم في كتـب. يدخل فيلبو موشـيوس، وهـو عالم في منتصف العمر، مشيته تدل على شيء من الاختلال)

موشيوس : هل تسـتطيعين أن تخبري السـيد جالليـو أنه لا بد له أن يستقبلني؟ إنه يُدِينني من دون أن يسمع كلامي.

السيدة سارتي : لكن مادام لا يريد أن يقابلك؟

موشيوس : إذا طلبت منه ذلـك، جزاك الله خيرا. لا بد لي من التكلم معه.

فرجينيا : (وقد مضت إلى أسفل السلم) يا أبي!

جالليو : ماذا؟

فرجينيا : إنه السيد موشيوس.

جالليو : (متضايقـا، يرفـع بصره عن كتابه، يذهب صوب السـلم، يتبعه تلاميذه) ماذا تريد مني؟

موشيوس : يا سـيد جالليو، يا سيد جالليو! اسـمح لي بأن أشرح لك المواضع في كتابي التي يبدو أنها تدين مذهب كوبرنيكوس في دوران الأرض. عندي فقط...

جالليو : وأي مجـال للشـرح بعد؟ أنـت توافق تماما علـى القرار الصادر من المجمع المقدس في سـنة ١٦١٦. ولك الحق في هذا كل الحق. لقد درسـت هنا الرياضيات، أنا لا أعـارض فـي هذا، لكن هذا لا يعطينا الحـق في إرغامك على أن تقـول إن ٢ + ٢ = ٤. لك الحق تماما في أن تقول إن هذه الحصـاة (يخرج من جيبه حصاة صغيـرة ويلقي بها على بلاط الأرضية) قد طارت إلى السقف.

موشيوس : يا سيد جالليو، أود...

جالليو : لا تتكلم عن صعوبات. أنا، برغم الطاعون، اسـتمررت في إجراء ملاحظاتي.

موشيوس : يا سيد جالليو، هناك ما هو أسوأ من الطاعون.

جالليو : أقــول لك: إن من لا يعرف الحقيقة، هو مغفل فقط. ولكن من يعرفها ويصفها مع ذلك بأنها كذب، هذا مجرم. اخرج من هذا البيت!

موشيوس : (بصوت خال من النبرة) أنت على صواب.

(يخرج. جالليو يعود إلى مكتبه)

فدرتسوني : نعم، الأمــر هكذا! إنه ليس عبقريا، ولعله كان لا يســاوي شــيئا إذا لم يتتلمذ عليك. هم طبعا يقولون: «هذا الرجل اســتمع إلى كل ما علّمه جالليو، ويرى نفســه مضطرا إلى الإقرار بأنه خطأ كله».

السيدة سارتي : هذا السيد المسكين يثير الشفقة في نفسي.

فرجينيا : لقد كان أبي يحبه كثيرا!

السيدة سارتي : يا فرجينيا! منذ مدة وأنا أريد أن أحادثك بشــأن زواجك. أنــت لاتزالين صبية، وليس لك أم، وأبوك يمضي وقته في جعل قطع صغيــرة من الثلج تعوم على الماء. على كل حال، لا أنصحك بأن تســأليه أبدا فيما يتعلق بالزواج. وإلا بقي ثمانية أيام ينطق بأشــياء غاية في الفظاعة، ويفضل ذلك عند تناول الطعام، حين يكون الشباب هنا، لأنه ليست لديه ذرة من الحيــاء. على كل حال ليس عن هذه الأمور أود أن أحدثك، بل فقط عن مستقبلك. لست أدري وأنا امرأة غير متعلمة، ولكن في مســألة مهمة مثل هذه ينبغي على المرء ألا يسير فيها خبط عشواء. حقا أعتقد أنه يجب عليك أن تذهبي لاستشــارة فلكيّ من الجامعة، ليحسب لك طالعك، وبهذا تعرفين ما سيحصل غدا. لماذا تضحكين؟

فرجينيا : لأنني قمت بهذا فعلا.

السيدة سارتي : (بشغف) وماذا قال؟

فرجينيا : يجــب عليّ أن احتاط مدة ثلاثة أشــهر، لأنه في هذه المدة تكون الشمس في برج الجدي، لكن بعد هذا تتحسن حالي تماما وتتبدد الغيوم. وإذا لم أنس الاهتمام بالمشتري، ففي وسعي أن أقوم بأي رحلة، لأن برجي هو الجدي.

السيدة سارتي : ولودفكو؟

فرجينيا : برجه الأســد. (صمت قصير) مزاجه عاشق. (صمت) أنا أعرف هذه الخطوة، إنه السيد جافوني، المدير.

(يدخل جافوني، مدير الجامعة)

جافوني : جئت فقط من أجل إحضار كتاب ربما يهمّ أباك. وأرجوك، بحق الســماء، ألا تزعجي الســيد جالليو. ذلك أني أعتقد أن كل دقيقــة تؤخذ من وقت هذا الرجــل العظيم، دقيقة مســلوبة من إيطاليا. وهكذا أودع الكتاب برفق بين يديك، وأعود أدراجي على أطراف أصابع قدميّ.

(يخرج. فرجينيا تعطي فدرتسوني الكتاب)

جالليو : في أي موضوع؟

فدرتسوني : لا أدري. (يقرأ حرفا حرفا) «في البقع الشمسية».

أندريا : البقــع الشمســية. كتــاب آخر في هــذا الموضــوع أيضا! (فدرتسوني يعطيه الكتاب غاضبا) اسمع الإهداء: «إلى أكبر حجة بين الأحياء في الفيزياء، إلى جالليو جاليلاي». (يغرق جالليو في قراءة كتابه) قرأت الرسالة التي كتبها فبريسيوس عن البقع، وهو هولندي. إنه يعتقد أن هذه البقع هي أسراب من الأجرام السماوية تمر بين الأرض والشمس.

الراهب الشاب : أليس هذا الأمر مشكوكا فيه تماما، يا سيد جالليو؟ (جالليو لا يحير جوابا)

أندريا : فــي باريس وبــراج يعتقدون أنهــا أبخــرة متصاعدة من الشمس.

فدرتسوني	:	آه!
أندريا	:	فدرتسوني يشك في هذا كثيرا.
فدرتسوني	:	إذا كان هــذا لا يضايقك، دعني خــارج المعركة. لقد قلت: «آه!»، وهذا كل شــيء. أنــا أصقل العدســات، أنا صاقل عدسات، أما أنتم فتلاحظون السماء، وما تشاهدونه ليس بقعا، بل Maculis (*) فأنّى لي أن أشك في أي شيء؟ وكم من المرات عليّ أن أقول لكم إنني لا أســتطيع قراءة الكتب: إنها مكتوبة باللاتينية.
		(في غضبة تبدو منه حركات، والميزان في يده. تســقط كِفّة على الأرضية. جالليو يخترق المسرح ويلتقطها (في صمت)
الراهب الشاب	:	نحن نقول: «طوبى للذين يَشُكّون.» وأنا أتساءل: لماذا؟
أندريا	:	منذ أسبوعين، وفي كل يوم تسطع فيه الشمس، كنت أتسلق إلى الغرفة العليا تحت قرميد السقف. ومن ثقوب القرميد لا يمــر غير شــعاع رفيع جدا، مما يســمح بتلقي الصورة المقلوبة للشــمس على ورقة. وشــاهدت بقعــة كبيرة مثل الذبابة، رخوة مثل الســحابة الصغيرة. وكانت تتنقل. لماذا لا ندرس بقع الشمس، يا سيد جالليو؟
جالليو	:	لأننا نبحث في الأجسام الطافية.
أندريا	:	عند أمي ســلال كبيرة مملوءة بالخطابات، كل أوروبا تريد أن تعرف رأيك. إن شــهرتك ارتفعت إلى درجة لا تستطيع معها أن تسكت بعد.
جالليو	:	إذا كانــت روما قد تركت شــهرتي تتصاعــد، فذلك لأنني اعتصمت بالصمت.
فدرتسوني	:	لكنك اليوم لا تســتطيع بعدُ أن تسمح لنفسك بالاستمرار في الصمت.

(*) باللاتينية: بقع

جالليو	:	لكني لا أستطيع أيضا أن أسمح لنفسي بأن أُشْوى على نار الخشب، مثل قديد الخنزير.
أندريا	:	أتظن إذن أن للبقع علاقة بهذه الحكاية؟ (جالليو لا يجيب) حسن، لنقتصر على قطع الثلج، فهذا لن يسبب لنا أذى.
جالليو	:	بالضبط. ما الذي افترضناه يا أندريا؟
أندريا	:	فيما يتعلق بطفو الأجسام، سنفترض أنه لا يتوقف على شكلها، بل على ثقلها وتفاوته بالنسبة إلى ثقل الماء.
جالليو	:	ماذا يقول أرسطو؟
الراهب الشاب	:	«Discus Iatus Planusque»
جالليو	:	ترجم!
الراهب الشاب	:	«لوح الثلج العريض المسطح يمكن أن يطفو على الماء، بينما إبرة الحديد تغوص إلى القاع»
جالليو	:	لماذا لا يغوص الثلج تبعا لأرسطو العظيم؟
الراهب الشاب	:	لأنه عريض ومسطح، وتبعا لذلك هو عاجز عن إزاحة الماء.
جالليو	:	طيب. (يأخذ قطعة من الثلج تقدم إليه، ويضعها في الحوض). والآن بضغط كبير، أجعل الثلج ينزل حتى قاع الحوض. أتوقف عن الضغط بيديّ. فماذا يحدث؟
الراهب الشاب	:	يصعد الثلج من جديد.
جالليو	:	تماما. يبدو أنه من أجل الصعود قادر على زحزحة الماء. فلجنتسيو!
الراهب الشاب	:	لكن، لماذا يطفو؟ إن الثلج أثقل من الماء، لأنه ماء كثيف.
جالليو	:	لكن لو كان هو ماء أقل كثافة؟
أندريا	:	لا بد أنه أخف من الماء، وإلا لما طفا.
جالليو	:	يا سلام، يا سلام!
أندريا	:	كما أن إبرة الحديد لا تطفو. كل ما هو أخف من الماء يطفو، وكل ما هو أثقل من الماء يغوص. وهو المطلوب.

جاลليو	:	يلزمك يا أندريا أن تتعلم كيف تبرهن بدقة واحتياط. أعطني إبرة الحديد. ثم هات ورقة. هل الحديد أثقل من الماء؟
أندريا	:	نعم.
		(جاลليــو يضع الإبــرة على قطعة ورق ويضــع الورقة على الماء. صمت)
جاลليو	:	ماذا يحدث؟
فدرتسوني	:	الإبــرة تطفو! أي أرســطو المقدس! إنهم لــم يحققوا هذا قط!
		(يضحكون)
جاลليو	:	كثيرا ما يكون السبب في عدم تقدم العلم توهم الوصول إلى الغرض. إن هدفهم ليس فتح باب على لا نهائية المعرفة، بل رسم حد للانهائية الخطأ. سجل ما حصل.
فرجينيا	:	ماذا جرى؟
السيدة سارتي	:	في كل مرة يضحكون، هذا يجعلني أقفز. إني أتساءل: «ممَّ يضحكون؟».
فرجينيا	:	أبي يقول دائما: «إن للاهوتيين قرع نواقيسهم وللفيزيائيين ضحكهم».
السيدة سارتي	:	على كل حال أنا راضية، لأنه لم يعد ينظر كثيرا في أنبوبته. لقد كان ذلك شيئا فظيعا.
فرجينيا	:	كل مــا يفعلــه الآن أن يضع قطع ثلج في الماء. وهذا أمر لا يمكن أن ينجم عنه شر كبير.
السيدة سارتي	:	لست متأكدة من هذا.
		(يدخل لودفكو مرسيلي بملابس السفر، يتبعه خادم يحمل أمتعة. فرجينيا تهرع إليه وتقبله)
فرجينيا	:	لماذا لم تكتب إليّ أنك قادم؟
لودفكو	:	كنــت قريبا من هنا وأنــا أتفقد مزارع الكــروم في ناحية

برتشيولي، فلم أتمالك أن أمنع نفسي من المجيء.

جالليو : (وكأنه قصير النظر) من هذا؟

فرجينيا : هذا هو لودفكو.

الراهب الشاب : أوَ لا تراه؟

جالليو : آه، صحيح! لودفكو! (يغدو في اتجاهه) وما حال الخيول؟

لودفكو : في أحسن حال، يا سيدي.

جالليو : سارتي، استراحة. اذهبي فأحضري إبريقا من ذلك النبيذ الصقلي الفاخر، العتيق.

(السيدة سارتي تخرج بصحبة أندريا)

لودفكو : (مخاطبا فرجينيا) أنت شاحبة. الحياة في الريف ستفيدك. أمي تنتظرك في سبتمبر.

فرجينيا : انتظر، سأريك ثوب زفافي.

(تخرج مسرعة)

جالليو : اجلس.

لودفكو : وفقا لما قيل لي يا سيدي، لديك أكثر من ألف طالب في المحاضرات التي تلقيها في الجامعة. فيم تشتغل الآن؟

جالليو : العمل اليومي المعتاد. هل مررت بروما؟

لودفكو : نعم. آه، قبل أن أنسى.. أمي تهنئك على حصافتك النموذجية في هذه المعركة القائمة حول البقع الشمسية، والتي يصول فيها الآن الهولنديون ويجولون.

جالليو : (بجفاف) شكرا جزيلا.

(السيدة سارتي وأندريا يحضران النبيذ والأقداح. يتحلقون حول المائدة)

لودفكو : أهل روما لديهم موضوع جديد للحديث طوال شهر فبراير. وكرستوفر كلافيوس قد عبر عن خوفه من أن حكاية البقع قد تؤدي إلى استئناف الجدل بشأن مسألة دوران الأرض

حول الشمس.

أندريا : لا خطر.

جاليليو : وأي جديد في المدينة الخالدة (روما)، فيما عدا الأمل في ارتكابي خطايا جديدة؟

لودفكو : أنت تعلم من غير شك أن أبانا المقدس (البابا) يعالج سكرات الموت؟

الراهب الشاب : يا إلهي!

جاليليو : عَمّن يتحدثون لخلافته؟

لودفكو : في الغالب عن الكردينال بربريني.

جاليليو : بربريني!

أندريا : السيد جاليليو يعرف بربريني.

الراهب الشاب : الكردينال بربريني رياضيّ.

فدرتسوني : عالم على عرش البابوات!

(صمت)

جاليليو : حسن. إنهم الآن في حاجة إلى رجل مثل بربريني ممن درسوا بعض الرياضيات. بدأت الأمور تتحرك. يا فدرتسوني، ربما يقدر لنا أن نعيش في عصر لن نحتاج فيه إلى الاستتار والتخفي كالمجرمين حين نعلن أن ٢ + ٢ = ٤. (مخاطبا لودفكو) أنا أجد هذا النبيذ جيدا يا لودفكو. وأنت، ما رأيك فيه؟

لودفكو : إنه جيد.

جاليليو : أنا أعرف مزرعة الكرم (التي من عناقيدها اعتُصر). المنحدر وعر وفيه حصباء، والعنب شبه أزرق. إني مغرم بهذا النبيذ.

لودفكو : نعم، يا سيدي.

جاليليو : إن فيه ما يشبه الظل القليل، ويكاد يكون حلوا، «يكاد» فقط.

يا أندريا! ارفع هذه الأشــياء: الثلج، والحوض، والإبرة. إني أُقَدّر مُتَع الحواس. ولا أحتمل النفوس الضعيفة التي تحسب هذا نوعا من الضعف. إني أقرر أن الاستمتاع فعل كريم.

الراهب الشاب : ماذا قررت أن تفعل؟

فدرتسوني : سنستأنف معركة دوران الأرض حول الشمس.

أندريا : (وهو يدندن)

قال «الكتاب» بأن الأرض ثابتة

والعالمون أبانوا ذاك تكرارا

والبابا يمسكها من أصل أذنيها،

بالرغم من ذا، تدور الأرض دورتها!

(أندريا وفدرتســوني والراهب الشاب يهرعون إلى منضدة التجارب وينظفونها مما عليها)

أندريا : ونحن نســتطيع أن ندرك أن الشــمس هي الأخرى تدور. فماذا يطيب لك، يا لودفكو؟

لودفكو : لماذا تتحمس كل هذه الحماسة؟

السيدة سارتي : لكنك لن تســتأنف كل هذه الحكايات الشــيطانية، يا سيد جالليو؟

جالليو : الآن أعــرف لمــاذا بعثت بك أمك إلــيّ. بربريني نجمه في صعود. العلم ســيصير وجدانا، والبحث شهوة. كلافيوس على صواب: بقع الشمس هذه تهمني كثيرا وتشوقني. هل وجَدّت نبيذي جيدا، يا لودفكو؟

لودفكو : قلت لك ذلك من قبل يا سيدي.

جالليو : صحيح، تجده جيدا؟

لودفكو : (بتصلب) نعم، أجده جيدا.

جالليو : هــل تتنازل وتقبل نبيــذ أو بنت رجل مــن دون أن تطالبه باطراح عمله؟ ما العلاقة بــين فلكي وبين بنتي؟ إن أطوار

الزهرة لا تغير شيئا في استدارة جسدها.

السيدة سارتي : لا تكن جلفا هكذا. سأذهب فورا لإحضار فرجينيا.

لودفكو : (مانعا إياها) إن الزواج، في أسـرة مثل أسـرتي، لا يقوم فقط على اعتبارات جنسية.

جالليو : إذن منعوك من الزواج بابنتي طوال ثماني سنوات، لتجعلني في أثناء هذه المدة موضوعا للملاحظة والمراقبة.

لودفكو : ينبغي أن تُحدث زوجتي، في قريتي، أثرا طيبا وهي جالسة على كرسيها في الكنيسة.

جالليو : تريد أن تقول إن فلاحيك جعلوا دفع الإيجارات مشـروطا بقداسة زوجة صاحب الأرض؟

لودفكو : بمعنى من المعاني.

جالليو : أندريـا، فولجنتسـيو، اذهبا وأحضـرا المرآة النحاسـية والستارة! سنسـقط عليها صورة الشـمس، لنخفف على أعيننا: وهذه الطريقة أنت الذي اكتشفتها، يا أندريا.

(أندريا والراهب الشاب يذهبان لإحضار المرآة والستارة)

لودفكو : في روما، تعهدت يا سيدي بألا تخوض بعد ذلك في حكاية الأرض التي تدور هذه.

جالليو : آه، صحيح! لكن في ذلك الوقت كان عندنا بابا رجعيّ!

السيدة سارتي : تقول: «كان»! والبابا لم يمت بعد!

جالليو : على وشـك، على وشـك، ضعوا على السـتارة شبكة ذات عيون مربعة. سنسلك بنظام منهجي. ثم نستطيع بعد ذلك أن نرد على رسائلهم، أليس كذلك يا أندريا؟

السيدة سارتي : «على وشـك»! إنه يزن ويعيد وزن قطع الثلج خمسين مرة، لكن حين يتعلق الأمر بشـيء يناسـبه وييسـر أموره، فإنه يصدقه تصديقا أعمى.

(يضعون الستارة)

لودفكو : لو مات قداسة البابا، يا سيد جالليو، فإن البابا الذي سيخلفه، مهما يكن، ومهما كانت مشاعره نحو العلوم طيبة، فإنه لن يستطيع أن يسمح لنفسه بإهمال مشاعر الأسر الكبيرة في البلاد نحوه.

الراهب الشاب : انظر يا لودفكو! الله صنع الكون الطبيعي، والله صنع المخ البشري والله سمح بدراسة علم الطبيعة.

السيدة سارتي : جالليو، أود أن أقول لك شيئا. لقد شاهدت ابني يقع في الخطيئة بسبب كل «تجاربك»، و «نظرياتك» و «مشاهداتك»، ولم أستطع أن أفعل شيئا. لقد وقفت في وجه السلطة، وهي قد حَذّرتك. وكبار الكرادلة راحوا يعظونك كما يصنع مع الفرس المريض. وكان لهذا أثره مدة من الزمان، لكن منذ شهرين، بعد عيد الحَمَل بلا دنس بأيام، فاجأتك وأنت تقوم بـ «مشاهداتك» خفية. وفي غرفة السطوح أيضا! لم أشأ التكلم في هذا، لكني فهمت على الفور. وفي الحال هرعت لإشعال شمعة على اسم القديس يوسف. وهذا فوق طاقتي. حين أكون وحدي معك، تظهر عليك أمارات العقل السليم وتقول لي إن من اللازم أن تبقى هادئا. لأن هذا خطر، لكن إجراء تجارب لمدة يومين يعيد الأمور من جديد. إذا كنت أحرم نفسي من النجاة في الآخرة لأني أبقى مع مبتدع هرطيق فهذا شأني أنا، لكن ليس من حقك أن تحطم سعادة بنتك بقدميك الغليظتين.

جالليو : (متضايقا) هات المقراب (التلسكوب)

لودفكو : يا جوزبّه، أعد الأمتعة إلى العربة.

(يخرج الخادم)

السيدة سارتي : إنها لن تتحمل هذا. تستطيع أن تقول أنت لها هذا.

(تمضي، والجرة في يدها)

لودفكو : أرى أنك قد اتخذت قرارك. يا سيد جالليو، إننا، أمي وأنا،

نمضي ٩ أشـــهر كل عام في مزرعتنا فـــي كمبانيا، ونحن واثقون بأن فلاحينا لم يضطربوا بسبب رسائلك عن توابع المشـــتري. إن عملهم شـــاق جدا. ومع ذلك فربما تشوشت أفكارهم لو عرفوا أن هجمات طائشة على عقائد الكنيسة المقدســـة تبقي من دون عقاب. ولا تنـــس أن هؤلاء الناس المســـاكين، وهم على ما هم فيه من حيوانية، يخلطون بين الأمور. إنهم فعلا كالأنعام. ولا تكاد تتصور أحوالهم. يكفي أن تنطلق إشاعة تقول إنه عثر على كمثرى في شجرة تفاح، لكي يطلقوا لأنفسهم العنان في التخيلات.

جالليو : (باهتمام) آه، هكذا!

لودفكو : دواب حقـــا. حينمـــا يأتون إلـــى البيت للشـــكوى من أتفه الأشـــياء، تضطر أمي إلى الأمر بضرب كلب بالسياط أمام عيونهـــم، إذ لا وســـيلة أخرى لردهم إلـــى النظام والأدب. وأنت، يا سيد جالليو، تلقي نظرة من بعيد إلى حقول الذرة الفاخـــرة من نافذة عربتك، وتـــأكل زيتوننا وجبننا وعقلك بعيـــد في عالم آخر، وليســـت لديك أي فكرة عما يقتضيه إنتاج هذا كله من مشقة ومراقبة في كل وقت.

جالليو : أيها الشاب، إنني حين آكل زيتوني، لا يكون عقلي بعيدا في عالم آخر.

(بعنف وشراســـة) أنت تضيع وقتـــي (يصيح إلى بعيد) هل معكم الستارة؟

أندريا : نعم. هل أنت حاضر؟

جالليو : أنت لا تضرب فقط كلابا، يا سيد مرسيلي ليحافظوا على النظام؟

لودفكو : يا سيد جالليو، إن عقلك عجيب. يا للخسارة!

الراهب الشاب : (مندهشا) إنه يهددك.

جالليو : نعـــم، إن في اســـتطاعتي إشـــاعة الاضطـــراب في عقول

فلاحيــه، وتوجيههــم إلى أفــكار جديــدة. وكذلك خدمه ومعاونيه.

فدرتسوني : وكيف ذلك؟ ليس فيهم واحد يعرف اللاتينية.

جالليو : في وسعي أن أكتب بلغة الشعب، وللجمهور، وليس باللاتينية لعــدد قليل من الخاصة. نحن في حاجة إلى أناس يعملون بأيديهم من أجل تحقيق الأفكار الجديدة. ومَن غير هؤلاء يريدون أن يعرفوا أسباب الأشياء؟ إن الذين لا يرون الخبز إلا على موائدهم لا يريــدون أن يعرفوا كيف عجن وخبز. هؤلاء الأوغاد يفضلون أن يشــكروا الرب على أن يشكروا الخباز الذي خبز هذا الخبــز. لكن الذين يصنعون الخبز يعرفون أنه لا شــيء يتحرك إلا إذا حركه شخص. وأختك التي تعمل فــي معصرة الزيتون، يافولجنتســيو، لن يغمى عليها، بل ستضحك ملء شدقيها حين يقال لها إن الشمس ليســت شكلا مرســوما على درع، بل هي رافعة: إذا كانت الأرض تتحرك فما ذلك إلا لأن الشمس تحركها.

لودفكو : لن تكون أبدا غير عبد لشهواتك. قدم اعتذاراتي لفرجينيا، أعتقد أن الأفضل ألا أراها في الوقت الحاضر.

جالليو : البائنة تحت تصرفك، في أي لحظة.

لودفكو : مساء الخير!

(يخرج)

أندريا : وبلغ احتراماتنا لكل آل مرسيلي في العالم.

فدرتسوني : الذيــن يأمرون الأرض بــألا تتحرك، خوفا مــن أن تنهار قصورهم.

أندريا : وبلغها أيضا لآل اتشينشي Cenci، وآل فلّاني Villani.

فدرتسوني : وآل تشرفيلي Cervilli!

أندريا : وآل لكي Lecchi!

فدرتسوني	:	وآل برليوني Pirleoni!
أندريا	:	الذين لا يريدون أن يقبلوا نعل البابا إلا إذا استعمله لسحق الشعب والدوس عليه.
الراهب الشاب	:	(وهو منهمك في العمل حول الأجهزة) البابا الجديد سيكون سلطانا مستنيرا.
جالليو	:	سـنأخذ الآن في ملاحظة بقع الشـمس هـذه التي تهمنا جدا، ولنتحمل النتائج، من دون أن نحسـب حسابا لحماية بابا جديد.
أندريا	:	(مقاطعا إياه) مع التوكيد الراسـخ على تشـتيت أسـراب النجوم التي قال بها فابرتسيوس، وكذلك الأبخرة الشمسية التي تقول بها براج وباريس، وإثبات دوران الشمس.
جالليو	:	رفقـا! وللبرهنة بشـيء من التأكيد على دوران الشـمس. فليس قصـدي أن أبرهن على أنني كنت على صواب حتى الآن، بل النظر فيما إذا كنت على صواب. وأقول لك: يا من تدخل طريق الملاحظة، تخلّ عن كل أمل. ربما كانت أبخرة، وربمـا كانت بقعا، لكن قبل افتراض أنهـا بقع وهو يوافق نظريتنـا، نحن نفضل أن نفتـرض أنها أجنحة ذباب. نعم، سنعيد النظر في المسألة كلها من جديد، ولن نتقدم بخطىً واسعة، بل بخطى الحلزون. وما نجده اليوم سنمحوه غدا، ولن نسجله من جديد إلا بعد أن نجده مرة ثانية. وما نرجو العثور عليه، سـننظر إليه، حين نعثر عليه، بتشـكك وعدم ثقة. إذن سـنأخذ في رصد الشمس ونحن عازمون عزما راسـخا على إثبات أن الأرض ثابتة! وفقط حين نخفق في هـذا، وحين ننهزم انهزاما تاما لا أمل في تغييره، ولا يعود أمامنا إلا أن نلعق جراحنا، حينئذ وحينئذ فقط سنتسـاءل ونحـن محزونون، عما إذا كنا علـى صواب بالرغم من كل شـيء، وعما إذا كانت الأرض لا تـدور. (وهو يحد نظره)

لكــن إذا ذابت بــين أصابعنا كل نظرية أخــرى، حينئذ لن نرحم أولئك الذين لم يبحثوا، ومع ذلك يسمحون لأنفسهم بفتح أفواههم. أزيلوا غلاف هــذه الأنبوبة وصوّبوها نحو الشمس!

(يرتب المرآة)

الراهب الشاب : لقــد كنت فهمت أنك بدأت العمل فعلا. فهمت ذلك حينما لم تتعرف السيد مرسيلي.

(يبــدأون البحث في هدوء وصمــت. وحينما تظهر صورة الشمس المتوهجة على الستارة، تأتي فرجينيا مسرعة وهي بثوب الزفاف)

فرجينيا : هل طردته يا أبي؟

(يغمى عليها. أندريا والراهب الشاب يندفعان نحوها)

جاالليو : لا بد أن أعرف.

* * *

(١٠)

(خلال السـنوات العشر التالية انتشـر مذهب جالليو بين عامة الناس. وفي كل مكان كان أصحاب الرسائل والمغنون الجوالـون يرددون الأفـكار الجديدة. وإبان كرنفال سـنة ١٦٣٢ اتخـذ الكثير في مدن إيطاليـا من الفلك موضوعا لمواكب النقابات.

ميـدان عام. بهلوان وزوجته جائعـان، ومعهما بنت عمرها خمس سـنوات وطفـل رضيع، يَصِلون إلـى الميدان، حيث جمهـور، بعضه يلبـس الأقنعـة ينتظر موكب آخـر أيام الكرنفـال. الزوجان يجـران حزمة أمتعة وأشـياء أخرى تتصل بعملهما)

المغني الجوال : (وهو يقرع الطبل) أيها الناس الكرام، سـادتي وسـيداتي! نقدم إليكـم، قبل موكب النقابات الكبير، أحدث المحدثات في فيرنتسه، أغنية تنتشر بسـرعة هائلة، في كل إيطاليا الشـمالية، وقد اسـتوردناها هنا نظيـر تضحيات هائلة. عنوانها: النظريات والآراء المخيفة التي يقول بها الأسـتاذ جالليو جاليلاي، عالم الطبيعة الكبير في بلاط توسكانيا، أو، إذا شئتم – نفحة من المستقبل.

(يغنّي)

حينما قال إله الكون: «كن»

صاح في الشمس: «وهاك واجبك:

حول هذي الأرض، كالخادم

ياشمس أديري شعلتك

ذاك أن الله قد شاء لكل أن يدور

دائما حول الذي يسمو عليه

ولذا يُلْفَى الصغار
دائما حول الكبار
دائرين
والخوالف
دائما حول الطلائع
هكذا في الأرض أو أعلى السماء
حول البابا يدور الكرادلة
وحول الكرادلة يدور الأساقفة
وحول الأساقفة يدور الكتبة
وحول الكتبة يدور أعيان المدينة
وحول أعيان المدينة يدور الصنّاع
وحول الصنّاع يدور الخدم
وحول الخدم تدور الكلاب والدجاج
والشّحاذون.

هـذا يا حضـرات الأفاضل، هـو النظام العظيـم، نظام الأنظمة، كما يقول السـادة اللاهوتيون. وقاعدة القواعد، والقاعدة الأزلية، لكن ماذا حدث أيها القوم الأعزاء؟

(يغنّي)

ظهر الدكتور جاليليو
(واطّرح كتابَ الرب
أخذ المقراب وصوّب
نظراته على ذا الكون)
صاح للشمس: أقيمي ساكنه!
في اتجاه العكس ذا الكونُ يدور
حول خادمتها تدور السيّدة

أيها القوم، وليس الأمر هزلا!
كلّ يومٍ قحةً يزدادُ أوزاعُ الخدم!
ذاك عين الحق: والنادر قد صار المزاح.
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرى سيّدَ نفسه؟
هذه الآراء ياقوم خطيرة.
(يغنّي)
الخادم يخدع سيّده
والبنت الخادم تتلاعب
كلب القصّاب ربا شحمه
طفل القُداس قد أهمله
بقي التلميذ على فَرْشه.
كلا يا سادة، لا، كلّا!
فكتاب الرب هو الجِدّ
حبل المشنقة أعدوه
بالشدّ، وإلّا يتحطمَ!
ذاك عين الحق: والنادر قد صار المزاح.
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرَى سَيّدَ نفسه؟

أيهـا القوم الكرام. ألقوا نظرة على المسـتقبل كما يتنبأ به العالم الدكتور جالليو جاليلاي.

(يغنّي)
سيدتا بيت في السوق
في سوق السمك بلا عمل

بائعة السمك على خبز
تلتهم هي الأخرى السّمكَ
والبنّا يحفر آساسا
يستخدم أحجار المالك
والبيت إذا تم بناؤه
يأخذه البنا ويسكنه
أيجوز لهذا أن يحدث؟
كلا، يا سادة، لا، كلا
فالأمر خطيرٌ، لا هزل
ذاك عين الحق: والنادر قد صار المزاح
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرَى سَيّدَ نفسه؟
هذا المستأجر، بوقاحة
يضرب ذا المالك في ظهره
زوجته تزود باللبن
ابنيها وتترك قسيسا
واللبن نصيب القسيس
كلا يا سادة، لا، كلّا
فكتاب الرب هو الجد
حبل المشنقة أعدّوه
بالشدّ، وإلا يتحطم
ذاك عين الحق، والنادر قد صار المزاح
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرَى سَيّدَ نفسه؟

زوجة المغني : تركتُ الرقص في الحلَبة
وقلت لزوجِيَ: اسمعني
ترى هل ثم بين النّجْمِ
نجم ثابت أبرع.

المغنّي : كلا، كلا، أبدا كلا
جالليو، حسبك، جالليو!
لو كلب أُطلِق من خطمه
لاسترسل في عض الناس
هذا والله هو الحق
والمزح الآن هو النادر
أين يا قومُ الذي لا يبتغي
أن يُرَى سيّد نفسه؟

كلاهما : يا من تعيشون في هم وإذلال
استجمعوا كل ما في النفس من قوة
ثم استمدوا من العلّام جالليو
مبادئ العيش في رَغَدٍ على الأرض
كانت مصيبتنا في الذل والطاعة
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرَى سيد نفسه؟

المغني : والآن أيها الناس الكرام، ستشاهدون الاكتشاف العظيم الذي قام به جالليو جاليلاي، وهو: الأرض وهي تدور في مدارها الدائري حول الشمس. (يقرع طبلته بعنف. الزوجة والبنت تتقدمان. الزوجة تحمل صورة غليظة تمثل الشمس، والبنت تحمل على رأسها قرعة مالطية تمثل الأرض، وترسم دائرة حول أمها. وبعد ذلك تتقدم البنت،

على إيقـــاع قرعات منفردة من الطبلـــة، بوثبات متدافعة. والمغني، وهو في حالة وجد، يشـــير إليها بذراعه الممدودة، وكأنها تقوم بقفزة خطرة. وفجأة، في عمق المســـرح، قرع مستمر للطبول)

صوت عميق ينادي : الموكب!

(يدخل رجلان في أســـمال بالية وهما يجرّان عربة صغيرة يجلس فيهـــا، على عرش حقير، «دوق توســـكانيا الكبير»، وعليه تاج من الكرتون وثوب من الخيش، ينظر في تلسكوب، وفـــوق العرش بطاقة كتب عليها: «ينظر عن ضيق وملال»، وبعد ذلك يســـير أربعة رجال مقنعين يحملون غطاء عربة كبيـــرا. يتوقفون ويطلقون في الهـــواء دمية تمثل كردينالا. رجـــل قزم يقف فـــي جانب وهو يحمل لوحـــة كتب عليها: «العصر الجديد». وفي الجمهور يقف شـــحاذ على عكازته ويرقص برجليه، ثم يســـقط بدويّ شـــديد. يدخل مانكان هائل يمثـــل جاليليو، المانكان يحيـــي الجمهور وأمامه طِفل يحمل نســـخة ضخمة من «الكتاب المقـــدس» مفتوحا عند صفحات معلَّم عليها بصليب)

المغني : جاليو جاليلاي، محطم «الكتاب المقدس»!

(الجمهور يقهقه قهقهات عالية)

* * *

(١١)

(ســنة ١٦٣٣. محكمة التفتيش تســتدعي الباحث الشهير إلى روما.

في أسفلَ: حر لافح

في أعلى: بَرْدٌ قارس

في الشارع صيحات ضجيج

وبلاط بالصمت يلوذ

غرفة انتظار وسلم في قصر مدتشي في فيرنتسه. جالليو وابنته ينتظران أن يستقبلهما الدوق الكبير)

فرجينيا : الوقت طال.

جالليو : نعم.

فرجينيا : هذا الرجل أيضا، إنه كان يتعقبنا.

(تشير إلى شخص يمر كأنه لا يراهما)

جالليو : (وكان بصره قد ضعف) لا أعرفه.

فرجينيا : لكني أنا شاهدته عدة مرات في هذه الأيام الأخيرة. إن فيه شيئا يقلقني.

جالليو : غير معقول، نحن في فيرنتسه، ولسنا بين قطاع الطرق في قورسقه

فرجينيا : ها هو ذا السيد جافوني، مدير الجامعة.

جالليو : الآن أنا خائف. هذا الأبله سيجرني مرة أخرى إلى مناقشة لا تنتهي. (المدير جافوني ينزل السلم. وعند رؤيته لجالليو يقفز ويصرف رأســه بســرعة ويمر أمامه بتزمت صلب، مكتفيا بإشــارة من رأســه غير مدركة) ماذا جرى له؟ إن نظري ضعف. هل حَيَّا؟

فرجينيا : كاد. ماذا في كتابك؟ هل من الممكن أن يجدوه مبتدعا؟

جالليو : أنت تَغْشَــينَ الكنائس أكثر مما ينبغي. وبسبب استيقاظك مبكرة والإســراع إلى القدّاس ستفســدين نضارة بشرتك. أنت تصلين من أجلي، أليس كذلك؟

فرجينيا : ها هو ذا الســيد فانِّي Vanni، صاحــب المصانع، الذي من أجله وضعت مشروع مصنع لصهر الحديد، لا تنس أن تشكر له إرساله الحَجَل.

(نزل إنسان من السلم)

فانِّي : هل أعجبك الحَجَل الذي أرسلته إليك، يا سيد جالليو؟

جالليو : الحجل كان ممتازا، يا معلم فاني، فشــكرا جزيلا لك مرة أخرى.

فانِّي : هناك في أعلى كانوا يتحدثون عنك. إنهم يعدونك مسؤولا عن الرســائل التي كتبت ضد «الكتاب المقدس»، والتي تباع في كل مكان هذه الأيام.

جالليو : إني أجهل كل شــيء عن هذه الرسائل الانتقادية. و«الكتاب المقدس» هو، وهوميروس من كتبي المفضلة للقراءة.

فانِّي : وحتــى لو لم يكن الأمــر هكذا... فإنــي أود أن أنتهز هذه الفرصة لأؤكد لك أننا نحن العاملين في المصانع نحن معك. لستُ على اطلاع واسع على حركات النجوم، لكنك في نظري الرجل الذي يناضل في سبيل حرية تعليم الأشياء الجديدة. خــذ مثلا تلك الماكينة الزراعيــة الألمانية التي وصفتها لي. وفي الســنة الماضية وحدها نشرت في لندن خمس رسائل وأبحــاث في الزراعة. أما نحــن هنا، فإننا نكون راضين لو كان عندنا كتاب عن القنوات في هولندا. والأوساط نفسها التي تثير لك المشاكل هي التي تمنع الأطباء في بولونيا من تشريح الجثث لأغراض البحث العلمي.

جالليو : يا فاني، إن لصوتك تأثيره.

فانِّي : أرجو ذلك. هل تعلم أن في أمستردام ولندن سوقا للنقود؟

ومدارس مهنية أيضا؟ وصحفا تظهر بانتظام وتخبر الناس عما يجري من أحداث؟ أما هنا فليست لدينا الحرية حتى في إيجاد الثروة. إنهم يعارضون ويقفون ضد مصانع صهر الحديد، بحجة أن تجمع أعداد كبيرة من العمال في المكان نفسه يساعد على انتشار الفساد الخلقي. أنا متضامن مع الرجال من أمثالك يا سيد جاليليو، في السرّاء والضراء. وإذا حاولوا أن يدبروا شيئا ضدك، فتذكر أن لك أصدقاء في كل فروع النشاط. سيدي، إن وراءك مدن شمال إيطاليا تسندك وتشد أزرك.

جاليليو : وفق علمي، ليس في نية أحد أن يدبر شيئا ضدي.

فانّي : صحيح؟

جاليليو : نعم.

فانّي : من رأيي أنك ستكون في أمان أكثر في البندقية. فعدد رجال الكهنوت هناك أقل. ومن هناك تستطيع أن تواصل النضال. إن عندي عربة وخيولا، يا سيد جاليليو.

جاليليو : لا أريد لنفسي أن أعيش عيشة لاجيء. ويهمني أن أعيش في رفاهية.

فانّي : مؤكد. لكن بعد الذي سمعته هناك فوق، أرى أن الأمر يحتاج إلى التصرف بسرعة. عندي شعور بأنه في هذه الأوقات بالذات هم يفضلون ألا تكون في فيرنتسه.

جاليليو : غير معقول. إن الدوق الكبير كان تلميذي، وفضلا عن ذلك فإن البابا نفسه سيحول دون إلحاق أي أذىً بي، لو حاولوا، بحجة من الحجج، أن يدبروا لي مكيدة.

فانّي : يبدو لي، يا سيد جاليليو، أنك لا تستطيع أن تميز أصدقاءك من أعدائك.

جاليليو : لكني أستطيع أن أميز القدرة من العجز.

(يمضي بعنف)

فانّي : طيب. أرجو لك حظا سعيدا.

(يخرج)

جالليو : (وقـد عاد إلى جـوار فرجينيا) في هـذا البلد، كل من له شـكوى يريد تقديمهـا، يلجأ إليّ أنا للتعبير عن شـكواه، خصوصا لـدى جهات لا يفيدني هذا خيـرا عندها. لقد ألفت كتابا فـي ميكانيكا الكون، هذا كل ما في الأمر. وما يستخلص منه – أو لا يستخلص – ليس من شأني أنا.

فرجينيا : (بصـوت عال جدا) لو عرف الناس كم نددت بما جرى في الكرنفال الأخير من طيش...

جالليو : صحيح! أعط عسـلا إلى دُبّ، تفقـد ذراعك إذا جاع هذا الحيوان.

فرجينيا : (بصوت خفيض) لكن هل صحيح أن الدوق الكبير استدعاك للمثول أمامه اليوم؟

جالليو : لا، لكنـي أنا طلبت مقابلته. ويهمه أن يحصل على الكتاب، لأنه هو الذي قدّم المال. اسألي الحاجب واشكي له أننا هنا ننتظر منذ مدة طويلة.

فرجينيا : (تذهب إلى الحاجب، ووراءها ذلك الشخص) يا سيد منتشو! هل أُبلغَ صاحب السمو أن أبي يريد أن يتحدث إليه؟

الحاجب : وهل أنا أعرف؟

فرجينيا : ليست هذه إجابة.

الحاجب : صحيح؟

فرجينيا : كن مهذّبا.

(الحاجب يوليها ظهره ويتثاءب وهو ينظر إلى الشخص)

فرجينيا : (وقـد عادت إلى جـوار أبيها) إنه يقـول إن الدوق الكبير لايزال مشغولا.

جالليو : سمعت كلمة «مهذب». فما هذا الذي كان؟

فرجينيا : لقد شــكرته على جوابه المهذب، هذا كل ما في الأمر. ألا تستطيع أن تترك الكتاب وتذهب؟ إنك هنا تضيع وقتك.

جالليو : أصبحت أســائل نفســي: هل وقتي ثمين حقا. ربما قبلت دعوة ســجريدو لأقضي بضعة أســابيع في بادوا. صحتي ليست على ما يرام.

فرجينيا : إنك لا تستطيع أن تعيش من دون كتبك.

جالليو : ويمكن أن نحمل في العربة بعض النبيذ الصقلّي، صندوقا أو صندوقين.

فرجينيا : كنت تقــول دائما إنه لا يتحمل النقل. ثم إن البلاط لايزال يدين لك بمرتب ثلاثة أشهر، وهم لن يرسلوها إليك.

جالليو : هذا صحيح.

(الكردينال كبير محكمة التفتيش ينزل السلم)

فرجينيا : الكردينال كبير محكمة التفتيش. (الكردينال وهو يمر أمام جالليــو يحيــي جالليو بانحناءة عميقة) يــا أبي، ماذا جاء بالكردينال، كبير محكمة التفتيش، إلى فيرنتسه؟

جالليو : لســت أدري. لكن موقفه دل على شيء من الاحترام. كنت أعرف ما كنت أفعل حين رحلت إلى فيرنتســه واعتصمت بالصمت طوال سنوات. لقد رفعوا من شأني إلى حد أنهم مضطرون اليوم إلى أخذي على علّاتي كما أنا.

الحاجب : (بصوت قويّ) صاحب السمو الدوق الكبير.

(كوزمو دي مدتشي ينزل السلم، جالليو يتقدم نحوه. كوزمو يتوقف، في شيء من الارتباك)

جالليو : جئت لأقدم إلى سموكم محاوراتي عن النظم الكبرى...

كوزمو : آه صحيح؟ كيف حال عينيك؟

جالليو : ليســت على ما يرام، يا صاحب السّمو. لو يسمح سموُّكم، أحضرتُ الكتاب...

كوزمو	:	حالــة عينيك تقلقني. حقا، تقلقني. وأنا أســتنتج من هذا أنك تفرط في استخدام أنبوبتك الثمينة. أو أنا غلطان؟
		(يستمر في طريقه من دون أن يأخذ الكتاب)
جاليليو	:	لم يأخذ الكتاب، أليس كذلك؟
فرجينيا	:	أبي، أنا خائفة.
جاليليو	:	(بصــوت مختنق، ولكنه حازم) لا تظهري شــيئا. وبدلا من الذهــاب إلــى بيتنا ســنذهب إلى منزل فولبــي Volpi، الزّجّاج. لقــد اتفقت معه على أن يكــون في فناء الحانة، بجوار منزله، عربة مســتعدة للرحيــل في أي وقت، وفيها براميل فارغة، لاقتيادي إلى خارج المدينة...
فرجينيا	:	أنت تعرف إذن...
جاليليو	:	لا تعودي.
		(يريدان الخروج)
موظف كبير	:	(ينزل الســلم) يا سيد جاليليو! أنا مكلف بإعلانك أن بلاط فيرنتســه لا يســتطيع من الآن فصاعدا أن يقاوم الرغبة التي أبدتها محكمة التفتيش المقدسة في إرسالك إلى روما لاستجوابك. يا سيد جاليليو! عربة محكمة التفتيش المقدس جدا في انتظارك.

* * *

(١٢)

(البابا

جناح في الفاتيكان. البابا أربان الثامن، واســـمه الأصلي: الكردينـــال بربرينـــي، اســـتقبل الكردينال كبيـــر محكمة التفتيش. بينما الجلســـة مســـتمرة، يلبس ثيابَه. يُسمع في الخارج تدافع حشد)

البابا : (بصوت جهوري) لا، لا، لا!

محكمة التفتيش : في اللحظة التي فيها علماء كل الكليات، وممثلو كل الطرق الرهبانية والكهنوت، بســـبيل الاجتماع، وقد جاءوا جميعا، تحدوهم الثقة البنوية في كلام الله كما هو وارد في الكتاب المقدس، ليســـمعوا من قداســـتكم ما يؤيد ثقتهم هذه، في هذه اللحظة إذن تريدون قداستكم أن تخبروهم أن الكتاب المقدس لا يمكن أن يعد منذ الآن صادقا؟

البابا : لن أعمل على تحطيم ألواح الحساب. لا!

كبير المحكمة : أمـــا أن الأمر يتعلق بألواح الحســـاب وليس بـــروح التمرد والشـــك، فهذا ما يقوله أولئك الناس. والواقع أن الأمر لا يتعلق بألواح الحســـاب، بل باضطراب مروّع اســـتولى على العالم. وهـــؤلاء الناس يعزون إلى الأرض الثابتة اضطراب عقولهم هم.

إنهم يصيحـــون: «الأرقام ترغمنا». لكـــن أرقامهم من أين جاءت؟ كل إنســـان يعـــرف أنها جاءت من الشـــك. هؤلاء الناس يشـــكون في كل شيء. فهل نبني مجتمع الناس على الشـــك، لا على الإيمان؟ «أنت ســـيدي، لكني أشك في أن هذا صواب»، هذا بيتك وزوجتك، لكن عندي شـــكا: أليس «الأولى أن يكونا لي أنا؟»، وفي مجال آخر، إن ولوع قداستكم

بالفنــون الجميلة، هذا الولوع الــذي ندين له بمجموعات جميلة، أفلا يفســر عند البعض تفسيرات مهينة، كما في هذا المكتوب علــى كل جدران روما، وهو: «ماتركه البرابرة في روما، ســرقه آل بربريني». وفي الخارج، لقد أراد الله للكرسي الرسولي، كرسي القديس بطرس، أن يعاني المحن والتجــارب. فهناك قوم مجردون من الفطنة، قد أســاءوا فهم سياســة قداستكم مع إســبانيا، ويأســفون لنزاعكم مع الإمبراطور. ومنذ خمســة عشــر عاما وألمانيا صارت مذبحــا يمزق الناس فيه بعضهم بعضــا، والكتاب المقدس في فمه يستشــهد به والآن والطاعون والحرب والإصلاح الديني قد جعلت المسيحية تتحلل وتتمزق إلى قطعان قليلة العدد، تسري إشاعة في كل أوروبا تقول إنكم مرتبطون مع الســويد، التي تدين بالمذهب اللوثري، في محالفة ســرية تهدف إلى إضعاف الإمبراطور، وهو كاثوليكي. والآن تجيء هذه الحشــرات من رجال الرياضيــات ويصوبون أنابيبهم نحو الســماء ويعلنون للعالم أنه حتى في هذا المجال، وهو الوحيد الذي لا يجادلك بعدُ أحد فيه، ليســت لقداســتكم قواعد راســخة. ويحق للمرء أن يتســاءل: ما الداعي إلى هذا الاهتمام المفاجئ بعلم بعيد مثل علم الفلك؟ ألا يستوي الأمر أن تدور هذه الأكر في هذا الاتجاه، أو ذاك؟ وبالقدوة السيئة التي كانت لهذا الرجل الفيرنتسي (= جالليو) صار كل إنســان في إيطاليا، حتى أحقر سائس للخيل، يتحدث عــن أطــوار الزُهرة بترهات، ولا يوجد شــخص لا يقصد بالطعن كثيرا من الأمور التي كانت تعد في المدارس راسخة، ومن شــأنها أن تحدث الكثير من الضرر. فماذا عســى أن تكون النتيجة، لو أن كل هؤلاء الناس، وأجسادهم ضعيفة، وهم مفطورون على المبالغة والإفراط، لم يعودوا يثقون إلا بعقولهــم، عقولهم التي يقول عنها هذا المأفون إنها الحكم

الوحيد؟ لو حَدَثَ أن أخذوا يشكون في أن يوشع قد أوقف الشـمس، ففي اسـتطاعتهم بعد هذا أن يتناولوا بالشـك الخسـيس حتى جَمْعَ النذور. ومنذ أن انطلقوا في عرض البحـار - ولا اعتراض عندي علـى هذا - صاروا يضعون ثقتهـم في كرة من النحاس يسـمونها البوصلة، وليس في الرب. وجالليو هذا، إبان شـبابه، قـد ألف في الماكينات. وهم يريدون بالماكينات أن يصنعوا المعجزات. كيف؟ لم يعد بهـم حاجة إلى الرب على كل حـال، لكن عن أي معجزات يتحدثـون؟ مثلا، لـن يكون ثم فارق بـين الأعلى والأدنى. فهم ليسـوا في حاجة إلى هذا. وأرسـطو العظيم - وهم لا يعدونـه إلا ككلب ميت - قد قال، وهم يرددون ذلك: «لو أن مَكوك النسّاج ينسج وحده، ولو أن عصا القيثارة تعزف وحدهـا، فلن يصبح أصحاب الورش في حاجة إلى صنّاع، ولا السـادة في حاجة إلى خـدم». وها نحن أولاء في هذا الوضع، هكذا يقولون. وهذا الرجل الفاسد يعرف تماما ما يعمـل، حين يؤلف كتبه في الفلـك لا باللاتينية، بل بلهجة بائعات السمك وتجار الأقمشة.

البابا : هذه قلة ذوق منه. سأحدثه في هذا.

كبير المحكمة : إنـه يهيج البعض، ويغري البعض الآخـر. والمدن التجارية شـمالي إيطاليا تلح كل يوم في طلـب المزيد من الخرائط السـماوية التي رسـمها السيد جالليو للاسـتعانة بها في الملاحة على سـفنها. ولا بد من التسليم لهم بهذا، لأن في ذلك منافع مادية ومصالح.

البابا : لكـن هذه الخرائط السـماوية قائمة على أسـاس أقواله المبتدعة، إذ فيها الكلام عن حركات الكواكب التي نعرفها، والتي لا يمكن أن تحدث لو رفضنا نظريته. فليس من الممكن القول ببطلان النظرية والإبقاء مع ذلك على الخرائط.

كبير المحكمة : ولمَ لا؟ لن نستطيع تجنب ذلك.

البابا : دبيـــب الأقدام يزعجنـــي. واعذرني، إذا كنـــت لا أملك إلا الانتباه إليه.

كبير المحكمة : إنه ربما يعبر لك خيرا مما أســـتطيع، أيها البابا الأقدس. وهل يعود كل هؤلاء الناس أدراجهم والشك في قلوبهم؟

البابا : لكن هذا الرجل هو أعظم عالم طبيعة في عصرنا، وهو نور إيطاليـــا، وليس مجرد عقل مختـــل. وله أصدقاء. فكر في بلاط فرنسا. فكر في بلاط فيينا. إنهم سينعتون الكنيسة المقدســـة بأنها حمأة من الأفكار الباليـــة المتعفنة. إني لن أسمح لأحد بأن يمسّه.

كبير المحكمة : عمليـــا لن نكون في حاجة معه إلى أن ندفع الأمور شـــوطا طويلا، ذلك أنه إنسان من لحم ودم، وسيستسلم بسهولة.

البابا : إنـــه أمهر خبير باللذات عرفته بين الناس. التفكير هو في نظره لذة جســـدية. وأمام خمرة معتقـــة، أو فكرة جديدة تراه عاجزا عن الرفض. ومـــن ناحية أخرى، لا أريد إدانة أي وقائـــع علمية، ولا إطلاق شـــعارات مثـــل: «هنا أنصار الكنيســـة!» و «هناك أنصار العقل!». لقد سمحت له بنشر كتابه على شـــرط أن يذكر في خاتمتـــه أن الكلمة الأخيرة ليست للعلم، بل للإيمان. وقد وفى الرجل بوعده.

كبير المحكمة : لكن على أي نحو؟ إن كتابه يعرض مناقشـــة بين مغفل يؤيد طبعا، آراء أرسطو، وبين رجل ذكّي يؤيد، طبعا، آراء السيد جاليليو، والملاحظة الختامية، أيها البابا الأقدس، من الذي نطق بها؟

البابا : ماذا وجدت أيضا؟ ومن الذي ينطق بالخاتمة؟

كبير المحكمة : ليس الرجل الذكيّ.

البابا : هـــذه وقاحـــة، أنا معك فـــي هذا. لكن دبيـــب الأقدام في

الدهاليز لا يُحتمل. هل العالم كله قد جاء؟

كبير المحكمة : ليس العالم كله، ولكن أفضل من فيه.

(صمت. البابا يلبس الآن كل زينة)

البابا : أقصى ما يصل إليه الأمر هو أن تُرُوه آلات التعذيب.

كبير المحكمة : هذا يكفي، يا قداسـة البابا. فإن السيد جالليو يفهم جيدا في أمور الآلات.

* * *

(١٣)

(٢٣ يونيو سنة ١٦٣٣. جالليو، أمام محكمة التفتيش، يعلن تبرؤه من نظريته في حركة الأرض

كان يوما عاصفا من شهر يونيو

كان يوما حافلا عندي وعندك

خرج العقل من الظلمة، لكن

ظل طول اليوم عند العتبة

روما. قصر سفير فيرنتسه. تلاميذ جالليو ينتظرون الأخبار. الراهب الشاب وفدرتسوني يلعبان لعبة الشطرنج الجديدة، ذات التحركات الواسعة. وفي ركن، ركعت فرجينيا وهي تنشد دعاء «السلام عليك يا مريم!»)

الراهب الشاب : البابا لم يستقبله. المناقشات العلمية انتهت.

فدرتسوني : كان أمله الأخير. هذا صحيح، فقد قال له منذ سنوات في روما حينما كان لايزال اسمه الكردينال بربريني: نحن في حاجة إليك. والآن استولوا عليه.

أندريا : سيقتلونه. ولن تتم «الأقوال» Discorsi

فدرتسوني : (وهو ينظر إليه خلسة) أتعتقد ذلك؟

أندريا : لأنه لن يتبرأ من مذهبه أبدا.

(صمت)

الراهب الشاب : في الليل، حين يتعذر النوم، يجتر الإنسان أفكارا لا فائدة منها. ففي الليلة الماضية مثلا، لم أكُفّ عن القول لنفسي: لم يكن عليه قط أن يغادر جمهورية البندقية.

أندريا : هناك لم يكن يستطيع أن يؤلف كتابه.

فدرتسوني : وفي فيرنتسه لم يستطع نشره.

(صمت)

الراهب الشاب	:	وكنت أسـائل نفسي أيضا: هل يتركون له حصاته الصغيرة التي يحملها دائما في جيبه، وكأنها مسنّ.
فدرتسوني	:	للذهـاب إلى حيث يقتادونـه يلبس المـرء ملابس من دون جيوب.
أندريا	:	(صائحـا) هذا، لن يجرؤوا عليه. وحتى لو فعلوا هذا معه، فإنه لـن يتبرأ من نظريتـه. «من لا يعـرف الحقيقة، هو مغفل فحسـب. لكن من يعرفهـا ويصفها بأنها كذب، هذا مجرم».
فدرتسوني	:	لا أظـن ذلك، ولن أطيق العيش لو فعل ذلك، لكن الآخرين عندهم القدرة على ذلك.
أندريا	:	لا يحصل المرء بالقوة على كل شيء.
فدرتسوني	:	ربما.
الراهب الشاب	:	(بصوت هامس) صار له في السـجن ثلاثة وعشرون يوما. وأمس كان الاستجواب الأساسـي، واليوم تنعقد الجلسة. (وقـد أدرك أن أندريـا يُرْعي السـمع، يرفـع صوته) لما زرته هنا بعد المرسـوم بيومين كنا جالسين في هذا الركن هنـاك، وأراني تمثال برياب الصغير في الحديقة، بالقرب مـن المزولة، ويمكن أن تراه من هنا، وشـبَّه عمله بقصيدة لهوراس، ولا يمكن إجراء أي تغيير فيها. وكان يتحدث عن إحساسه بالجمال، الذي دفعه إلى البحث عن الحقيقة. وروى البيت «في الشتاء كما في الصيف، من قريب أو بعيد، طالما كنت حيا وبعد ذلك». وكان يفكر في «الحقيقة».
أندريا	:	(مخاطبا الراهب الشاب) هل رويت له كيف كان في الكلية الرومانية بينما كانوا يمتحنـون ويفحصون أنبوبته؟ احْكِ! (الراهب الشـاب يهز رأسه) تماما كالعادة: كان يضع يديه على ركبتيه، وبطنه مقلوب، ويقول: «أرجوكم يا سادة، شيئا من الإدراك السليم!»

(يقلد جالليو، وهو يضحك. صمت. مشـيرا إلى فرجينيا) إنها تصلي من أجل أن يتبرأ من نظريته.

فدرتسوني : دعهـا! إن عقلها قد تشـوش منـذ أن تكلمـوا معها. لقد أحضروا متلقي اعترافها من فيرنتسه.

(يدخل الشخص الذي شوهد في قصر الدوق الكبير)

الشخص : السـيد جالليو سـيكون هنا بعد قليل. وربما سـيكون في حاجة إلى سرير.

فدرتسوني : أطلقوا سراحه؟

الشخص : ينتظرون إلى السـاعة الخامسـة، في أثناء جلسة محكمة التفتيـش، حـين يعلن السـيد جالليو تبرؤه مـن نظريته. وحينئذ سـيقرع ناقوس القديس مرقس الكبير، وسـيُقرأ إعلان التبرؤ علنا على الناس.

أندريا : لا أعتقد ذلك.

الشخص : ونظرا إلى التجمهرات في الشـوارع، فإن السـيد جالليو سيُقتاد إلى القصر من الباب الخلفي، باب الحديقة.

أندريا : (يرفـع صوته فجـأة) القمر شـبيه بـالأرض، ولا يضيء بنفسـه. وكذلك الزُهَرَة لا تضيء بنفسها: إنها مثل الأرض وتنتقل حول الشمس. وهناك أربعة أقمار تدور حول كوكب المشـتري، وارتفاع هذا هو ارتفاع النجـوم الثوابت، وليس مربوطـا بأي غلاف. والشـمس هي مركـز العالم، وتظل ساكنة في مكانها، لا تتحرك، والأرض ليست مركز العالم، وهي تتحرك. وهو الذي بين لنا ذلك.

الراهب الشاب : وعبثـا يسـتعملون القوة، فما شـوهد لا يمكـن جعله لم يشاهَد.

فدرتسوني : (وهو ينظر إلى المزولة في الحديقة) الساعة الخامسة.

(فرجينيا تصلي وتدعو بحرارة أشد)

أندريا : كلا، لا أستطيع احتمال الانتظار. إنهم الآن يضربون الحقيقة على أم رأسها.

(يغلق إذنيه. وكذلك الراهب الشاب. لكن الناقوس لا يدق. وبعد برهة مشغولة بتمتمات صلوات فرجينيا، فدرتسوني يقول «لا» برأسه. الآخرون يلقون بأيديهم)

فدرتسوني : (بصوت لا نبرة فيه) لا شيء. مضت ثلاث دقائق بعد الخامسة.

أندريا : إنه يقاوم.

الراهب الشاب : إنه لن يتبرأ من نظريته.

فدرتسوني : لا. يا لنا من سُعَداء!

(يتعانقون، وهم في أوج الفرحة)

أندريا : وهكذا، لا تستطيع القوة أن تنال كل شيء. وليست قادرة على كل شيء. وإذن يمكن هزيمة الحماقة، الحماقة ليست بمأمن من الطعن! وإذن الموت لا يخيف الإنسان!

فدرتسوني : الآن حَقّ القولُ بأن عصر المعرفة قد بدأ، في هذه الساعة قد ابتدأ. تصور، لو أنه تبرأ.

الراهب الشاب : لم أقل ذلك، لكني كنت شديد القلق. كنت رجلا قليل الإيمان.

أندريا : أما أنا، فكنت أعلم.

فدرتسوني : كأن الليل قد عاد في الضحى، هكذا كان سيكون شعورنا.

أندريا : كأن الجبل قد قال: أنا نَهْرٌ.

الراهب الشاب : (جاثيا وهو يبكي) الحمد والشكر لك يا إلهي.

أندريا : لكن تغير الآن كل شيء. رفع الإنسان رأسه، ومخلوق الآلام يقول: «أريد أن أحيا». هذا ما نكسبه لو أن إنسانا واحدا بقي واقفا وقال: لا.

(في هذه اللحظة يرن صوت ناقوس القديس مرقص بنبرة حادة. الكل مسَمّرون في أماكنهم)

فرجينيا : (وقد نهضت) ناقوس القديس مرقص! لن يدان.

(من الشـــارع يصّاعد صوت المنادي العام، وهو يقرأ إعلان جالليو لتبرئه من نظريته)

صوت المنادي : «أنـــا جالليو جاليلاي، أســتاذ الرياضيــات والطبيعة في فيرنتســـه، أعلن تبرئي مما عَلّمْته، وهو أن الشـــمس هي مركز العالـــم، ولا تتحرك من مكانها، وأن الأرض ليســت المركز وأنها تتحرك. أتبرأ من، وأكره، وألعن، بقلب مخلص وإيمـــان لا مراء فيه، كلّ هـــذه الأخطاء والبدع، وكذلك كل خطأ آخر وكل رأي آخر يتعارض مع تعاليم الكنيســـة، أمنا المقدسة».

(المســـرح يأخذ في الإظلام. وحين يضاء من جديد، لايزال الناقوس يقرع، ثم يتوقف. فرجينيا خرجت وتلاميذ جالليو لايزالون هناك)

فدرتسوني : لم يدفع لك شيئا ذا بال نظير العمل الذي قمت به. ولم يكن في مقدورك أن تشـــتري لباسا، ولا أن تنشر شيئا باسمك. وكل هذا قد تحملته لأنه كان «عملا في سبيل العلم».

أندريا : (بصوت عال جدا) ويل للأمة التي لا أبطال فيها!

(يدخل جالليو، وقد تغير تماما، لا يكاد المرء يتعرفه بسبب القضية. سمع الجملة التي قالها أندريا. وبقي عند وصيد الباب بضع لحظـــات، منتظرا أن يحيوه. لكن لا أحد يفعل ذلك، والتلاميذ يبتعدون عنه، حينئذ يتقدم بخطى بطيئة، مترددا بســـبب ضعف بصره، نحو مقدمة المســـرح، حيث يجد كرسيا مستديرا فيجلس عليه)

أندريا : لا أستطيع بعدُ أن أراه. فليرحل!

فدرتسوني : هَدّئ نفسك.

أندريا : يا خابية النبيذ! يا مفترس الحلزون! أنقذت جلدك العزيز؟
(يجلس) أشعر بغثيان.

جالليو : (بهدوء) أعْطوه كوب ماء!

(الراهب الشاب يذهب ليحضر لأندريا كوب ماء من الخارج. الآخرون لا يهتمون بجالليو، وجالليو يستمع من دون أن يتحرك من كرسيه المستدير. من بعيد يُسمع مرة أخرى صوت المنادي العام)

أندريا : الآن أستطيع المشي، لو ساعدتموني قليلا.

(يقتادونه نحو الباب. في هذه اللحظة جالليو يتكلم)

جالليو : لا! الويل للأمة التي في حاجة إلى أبطال.

نص يقرأ أمام الستارة:

«أليس من الواضح أن الفَرس الذي يسقط من ارتفاع ثلاث أذرع أو أربع يجوز أن تنكسر عظامه، بينما الكلب لا يصاب بأي أذى، وكذلك القط الذي يسقط من ارتفاع ثماني أذرع أو عشر، أو الزنبور الذي يسقط من ارتفاع برج، أو النملة إذا سقطت من القمر؟ وكما أن الحيوانات الضعيفة القامة أقوى وأشد نسبيا من الحيوانات البدينة، كذلك النباتات الصغيرة أقدر على المقاومة: فإن سنديانة طولها مائتا ذراع لا يمكنها أن تنمي فروعها بالنسبة نفسها التي بها تفعل السنديانة الصغيرة، والطبيعة لا يمكنها أن تعطي الفرس قامة عشرين فرسا، كما لا يمكنها أن تعطي المارد قامة عشرة رجال، إلا إذا عدلت نسب جميع الأعضاء، وخصوصا العظام، بحيث يكون حجمها أكبر من الحجم الذي تتطلبه نسبة الأبعاد. والرأي الشائع، الذي يعزو إلى الآلات الكبرى درجة المقاومة نفسها التي يعزوها إلى الآلات الصغرى، هو رأيٌ بَيّنُ البطلان».

جالليو، من كتاب: «الأقوال» Discorsi

* * *

(١٤)

(سنة ١٦٣٣ – ١٦٤٢

جالليو جاليلاي يعيش في بيت ريفي بالقرب من فيرنتسه، وهو سجين محاكم التفتيش حتى وفاته. كتاب «الأقوال»،

من عام ١٦٣٣ حتى عام ١٦٤٢

بقي جالليو سجين الكنيسة حتى وفاته.

قاعة كبرى، وفيها منضدة، وكرسي من الجلد وكرة أرضية. جالليو، وقد صار شيخا هرما، نصف أعمى، يقوم بتجارب دقيقة بواسطة كرة من الخشب، ومجرى من الخشب منحني الشكل. وفي الدهليز، يجلس راهب يراقبه. يُقرع الباب. الراهب يعدو لفتح الباب ويُدْخِل فلاحا يحمل إوزتين منتوفتي الريش. فرجينيا، وقد صار عمرها الآن نحو الأربعين سنة، تخرج من المطبخ)

الفلاح : كلفوني بأن أحمل إليك هذا.

فرجينيا : من الذي أرسل بها، أنا لم أوص على إوزّ.

الفلاح : قالوا لي إن الذي بعث بها عابر طريق.

(يخرج. فرجينيا تتطلع في الإوزتين بدهشة. الراهب يأخذهما من يديها ويفحصهما بارتياب. ثم، وقد اطمأن، يعيدهما إليها، وهي تحملهما إلى جالليو في القاعة الكبرى وهي تحملهما من عنقيهما).

فرجينيا : عابر طريق قد أتى بهذه الهدية.

جالليو : ما هي؟

فرجينيا : ألا تراهما فعلا؟

جالليو : لا. (يقترب) إوز. هل معهما بطاقة تحمل اسما؟

فرجينيا : لا.

جالليو : (وقد أخذ منها إحدى الإوزتين) ثقيلة. عندي شهية لقطعة منها.

فرجينيا : ليس من الممكن أن تكون جائعا. إذ تناولت عشاءك منذ قليل. وماذا في عينيك بعد؟ كان من المفروض أن تراهما من دون أن تتحرك من المنضدة.

جالليو : أنت في الظلام.

فرجينيا : أنا لست في الظلام.

(تأخذ الإوزّتين)

جالليو : ضعي فيهما زعترا وتفاحا.

فرجينيا : (مخاطبة الراهب) لا بد أن يذهب أحد لإحضار الطبيب، فإن أبي لم يستطع رؤية الإوزتين وهو عند منضدته.

الراهب : سأطلب أولا إذنا من مونسنيور كربولا. إنه يريد أن يكتب بنفسه.

فرجينيا : لا. لقد أملى عليّ كتابه، وأنت تعرف ذلك جيدا. وقد تسلمت الصفحتين ١٣١ و ١٣٢، وهما الأخيرتان في الكتاب.

الراهب : إنه ثعلب عجوز.

فرجينيا : هو لا يفعل شيئا مخالفا للتعليمات. وتوبته نصوح مخلصة، وأنا متنبهة إليه. (تعطي الراهب الإوزتين) قل لهم في المطبخ يشووا الكبدة، مع تفاحة وبصلة. (تعود إلى القاعة الكبرى) والآن سنوجه اهتمامنا إلى عيوننا، ونرتب كرتنا ونملي جزءا صغيرا من رسالتنا الأسبوعية إلى سيادة كبير الأساقفة.

جالليو : لست أشعر بأنني على ما يرام. الأفضل أن تقرئي عليّ بعضا من شعر هوراس.

فرجينيا : في الأسبوع الماضي قال لي المونسنيور كربولا – ونحن ندين له بالكثير، مثلا الخضراوات التي أرسلها إلينا منذ مدة – قال إن رئيس الأساقفة يسأل في كل مرة: هل أعجبتك المسائل والاقتباسات التي بعث بها إليك؟

(تجلس لتكتب تحت إملائه)

جالليو	:	أين وصلنا؟
فرجينيا	:	القسم الرابع: «... وفيما يتعلق بموقف الكنيسة أمنا المقدسة، من الاضطراب الذي حدث في ترسانة البندقية، أؤيد كل التأييد الموقف الذي اتخذه الكردينال اسبولتي تجاه تمرد الحبّالين»
جالليو	:	هذا هو. (يملي) «أؤيد كل التأييد الموقف الذي اتخذه الكردينال اسبولتي Spoltti تجاه تمرد الحبّالين، وهو أن الأفضل توزيع الحساء عليهم باسم المحبة المسيحية، من زيادة أثمان حبال السفن والحبال الخاصة بالنواقيس. خصوصا أن الحكمة تقضي بتقوية الإيمان في نفوسهم، لا الشراهة والجشع. لقد قال القديس بولس: «المحبة قادرة على كل شيء...»، فما رأيك في هذا؟
فرجينيا	:	هذا رائع، يا أبي.
جالليو	:	ألا تعتقدين أنهم قد يتنسمون في هذا شيئا من التهكم؟
فرجينيا	:	لا. سيسر المطران كل السرور. إنه يحب الأشياء الملموسة.
جالليو	:	أنت قادرة على الحكم. وماذا بعد هذا؟
فرجينيا	:	حكمة رائعة: «حينما أكون ضعيفا، هنالك أكون قويا»
جالليو	:	لا شرح.
فرجينيا	:	لماذا؟
جالليو	:	وماذا بعد هذا؟
فرجينيا	:	«حتى نستطيع أن ندرك أن محبة المسيح تفوق كل معرفة». (الرسالة إلى أهل أفسوس، الإصحاح الثالث، الآية ١٩)
جالليو	:	وأشكر لنيافتك بوجه خاص اقتباسك الرائع من الرسالة إلى أهل أفسوس. وقد هزتني إلى أن أجد في كتاب «الاقتداء بالمسيح»، وهو كتاب لا مثيل له، الحكمة التالية (يقولها عن ظهر قلب) «من يَبْلُغْه الكلام الأزلي لا يَضَعْ بَعْدُ

أسـئلة لا جدوى منها». هل في استطاعتي بهذه المناسبة، أن أتحدث عن حالتي الخاصة؟ إنهم لايزالون يأخذون عليّ أنني سـبق لـي أن ألفت كتابا في الأجرام السـماوية بلغة الشـارع. ولم أكـن أقصد من هذا قـط أن أقترح أو أؤيد أن تكتـب الكتب المتعلقة بموضوعات أهـم بآلاف المرات، مثل موضوعات اللاهوت، بلغـة صانعي المكرونة. وحينما يحتجون بأن «المبرر لاستخدام اللغة اللاتينية في الطقوس والشـعائر الدينية هو كون هذه اللغة لغة عالمية، مما يمكّن كل الشعوب من فهم القداس»، فإنه يبدو لي أن هذه الحجة ليست وجيهة تماما، لأن الساخرين، وهم لا يعوزهم القول، يسـتطيعون حينئذ أن يعترضـوا قائلين إن النص لا يفهمه أي شـعب في هذه الحالة. أما عن نفسـي، فيطيب لي أن أتخلى، فيما يتعلق بالأسرار المقدسة، عن الوضوح المريب. ولاتينية منبر الوعظ، وهي تحمي الحقائق الأزلية للكنيسة من اسـتطلاع الجهلاء، تبعث الثقـة لو كان أبناء الطبقات الدنيا، حين يصيرون قساوسـة، ينطقونها بنبرات اللهجة المحلية. لا، اشطبي هذا.

فرجينيا : كل هذا الموضع؟

جاليليو : ما يأتي بعد: «صانعي المكرونة».

(يُقرع البـاب. فرجينيا تمضي إلى الدهليز. الراهب يفتح. يدخل أندريا سارتي، وقد صار الآن رجلا يناهز الأربعين).

أندريا : مسـاء الخير. أنا على وشك مغادرة إيطاليا لأتابع أبحاثي العلميـة فـي هولندا، وقـد طلبوا إلـيّ أن أزوره في أثناء مروري لأزودهم بأخباره.

فرجينيا : لست أدري هل يريد أن يراك. إنك لم تحضر قط.

أندريا : اسأليه.

(جاليلـو قد تعـرف الصوت. يبقى جالسـا، بغير حراك. فرجينيا تأتي إليه)

جالليلو : أليس هو أندريا؟

فرجينيا : بلى. هل ينبغي طرده؟

جالليو : (بعد لحظة صمت) أدخليه.

(فرجينيا تُدْخِل أندريا)

فرجينيا : (تخاطب الراهب) إنه ليس خطرا. كان تلميذا له. واليوم صار خصما له.

جالليو : يا فرجينيا، اتركيني وحدي معه.

فرجينيا : أريد أن أسمع ما يقوله.

(تجلس)

أندريا : (ببرود) كيف حالك؟

جالليو : اقترب. ماذا جرى لك؟ حدثني عن شغلك. قيل لي إنه ينصبّ على علم المائيات.

أندريا : كلفني فابرتسيوس من أمستردام بالسؤال عن صحتك.

(صمت)

جالليو : صحتي جيدة. وأنا محاط بالعناية والاهتمام.

أندريا : سأكون سعيدا حين أخبرهم بأنك في صحة جيدة.

جالليو : فابرتسيوس سيكون سعيدا حين يعلم ذلك. وتستطيع أيضا أن تخبره أنني أعيش في راحة مقبولة. فبفضل عمق توبتي استطعت أن أظفر برضا ورعاية المشرفين عليّ، حتى أنهم أذنوا لي بمواصلة نشاطي العلمي، في حدود معقولة، وتحت مراقبة الكنيسة.

أندريا : هكذا إذن! ونحن أيضا علمنا أن الكنيسة راضية عنك. خضوعك التام أنتج أثره. ووفق ما يؤكدون، فإن المشرفين عليك قد لاحظوا، برضا بالغ، أنه منذ خضوعك لم ينشر في إيطاليا كتاب واحد يؤيد الأفكار الجديدة.

جالليو : (وهو يصغـي باهتمام) لكن مع الأسـف توجد بلاد تفلت من حماية الكنيسة الساهرة. وأخشى أن تستمر النظريات المدانة في أن تجد في تلك البلاد من يرعونها ويسندونها.

أندريا : في تلك الدول أيضا حدث رد فعل، فرحت به الكنيسة، وكان ذلك نتيجة لتبرّئك من نظرياتك.

جالليو : صحيح؟ (صمت) هل لديك أخبار عن ديكارت؟ وهل لديك أخبار عن باريس؟

أندريا : نعم. لما علم ديكارت بتبرئك من نظرياتك، بادر فأخفى رسالة عن الضوء، خبأها في درج.

(صمت طويل)

جالليو : أنا مهموم بشأن بعض العلماء من أصدقائي الذين جررتهم في طريق الضلال. هل بعد تبرئي عادوا إلى آراء أكثر صوابا؟

أندريا : عزمت على الذهاب إلى هولندا، كي أستطيع مواصلة أبحاثي. لا يعطَى التلميذ إذنا لم يحصل عليه الأستاذ.

جالليو : فاهم.

أندريا : عاد فدرتسوني إلى صقل العدسات، في محل لا أدري مكانه في ميلانو.

جالليو : (ضاحكا) إنه لا يعرف اللاتينية.

(صمت)

أندريا : وفولجنسيو، راهبنا الصغير، تخلّى عن البحث وعاد إلى حظيرة الكنيسة.

جالليو : هذا حسن. (صمت) المشرفون عليّ يحسبون أنني على وشك الشفاء الروحي. وأنا أتقدم فيه أكثر مما كان يُتوقع.

أندريا : آه!

فرجينيا : الحمد لله!

جالليو : (بلهجة خشنة) اذهبي وانظري ماذا حدث للإوز، يا فرجينيا.

(فرجينيا تخرج غاضبة. الراهب يكلمها وهي مارة)

الراهب : هذا الشخص لا يعجبني.

فرجينيا : إنه ليس خطرا. أنت قد سمعت بنفسك. (وهي ذاهبة) وصلنا جبن معْز طازج.

(الراهب يخرج معها)

أندريا : سأسافر طوال الليل، وذلك لأعبر الحدود غدا عند الفجر. هل أستطيع الرحيل؟

جالليو : لست أدري لماذا جئت، يا سارتي. ألتشيع الاضطراب في نفسي؟ إني أعيش بتحوط، وأفكّر بتحوّط منذ أن جئت إلى هنا، وكفاني ما وقعت فيه من نكسات.

أندريا : لا أريد أن أعكر عليك هدوءك، يا سيد جالليو.

جالليو : بربريني سمّى هذا نوعا من الجرب. وهو نفسه ليس بريئا منه تماما. عدتُ إلى الكتابة.

أندريا : آه؟

جالليو : فرغت من كتاب «الأقوال».

أندريا : وكيف؟ المحاورات المتعلقة بفرعي المعرفة الجديدين: الميكانيكا، وسقوط الأجسام؟ هل هي هنا؟

جالليو : أوه، إنهم يعطونني ما أكتب به. والمشرفون عليّ ليسوا بلهاء. إنهم يعلمون أن الرذائل المتأصلة لا تمحى في يوم وليلة. وهم يحمونني من النتائج الوخيمة، وذلك بأخذ الصفحات كلما فرغت منها، وحفظها في مكان أمين.

أندريا : يا إلهي!

جالليو : هل قلت شيئا؟

أندريا	:	يا إلهي!
جالليو	:	هل قلت شيئا؟
أندريا	:	إنهم يجعلونك تحرث في البحر. يعطونك ما تكتب به، لكن من أجل أن يخرسـوك. كيف يتسنى لك أن تكتب؟ أوَ ليس أمامك من هدف غير هذا؟
جالليو	:	أوه، أنا أسير عاداتي!
أندريا	:	كتاب «الأقوال» بين أيدي الرهبان! بينما أمستردام ولندن وبراج في أشد الحاجة إليه!
جالليو	:	إنني من هنا أسـمع فابرتسـيوس يبكي، مطالبا بحقه في رطل اللحم، وهو آمن في هولندا.
أندريا	:	معنى هذا ضياع علمين جديدين!
جالليو	:	إنه هو وبعض الآخرين سيهتزون جزعا حينما يعلمون أنني خاطـرت بالبقايا الضئيلة الباقية من راحتي من أجل عمل نسـخة منه، من وراء ظهري، مسـتنفدا آخر بريق من نور الليالي المضيئة في هذه الأشهر الأخيرة.
أندريا	:	عندك نسخة؟
جالليو	:	غروري قد منعني حتى الآن من تدميرها.
أندريا	:	وأين هي؟
جالليو	:	«إذا تسببت عينك في الخطيئة فاقلعها». أيا من كان مؤلف هـذه العبارة، فإنـه كان أعلم مني بأمـور الراحة العقلية. وأظن أنـه من الجنون المطبق أن أسـلمها إلى أيد أخرى. ومادمت أنا قد كنت عاجـزا عن الكف عن العمل العلمي، فـلا بأس عليك أنت من الانتفاع بها. النسـخة مخبأة في الكرة الأرضية. فإذا كنـت تنوي حملها إلى هولندا فعليك أن تتحمل وحدك كل المسـؤولية. وعليـك أن تقول حينئذ إنك اشتريتها من شـخص اطلع على النسخة الأصلية في الديوان المقدس.

(يذهب أندريا لاستخراج النسخة من الكرة الأرضية).

أندريا : كتاب «الأقـوال» (يتصفح المخطوط، ويقـرأ بصوت عال) «غرضـي هو أن أنشـئ علمـا جديدا كل الجـدة، يتناول موضوعا قديما جدا، هو الحركة. وقد اكتشـفت – بفضل التجارب – بعض خواصها التي تستحق أن تُعرف».

جاليليو : كان لا بد من تمضية وقتي في شيء.

أندريا : سيكون أساسا لفيزياء جديدة.

جاليليو : خبئه في ثيابك.

أندريا : ونحن الذين ظننا أنك خُنْتَ! وأعلى الأصوات هجوما عليك كان صوتي.

جاليليو : كان ذلك أمـرا طبيعيا. لقد علمتك العلم، غير أني أنكرت الحقيقة.

أندريا : هذا يغير كل شيء. كل شيء تماما.

جاليليو : صحيح؟

أندريا : كنت.. تخفي الحقيقة. لكن عن العدو. في ميدان الأخلاق، وفي سائر الميادين، كنت أنت متقدما علينا بعدة قرون.

جاليليو : وَضّح هذا، يا أندريا.

أندريا : كنا، مع رجل الشـارع، نقول: «سـيموت ولكن لن يتبرأ من مذهبـه». ثم جئت وقلت: «تبرأت، ولكني بقيت حيا». قلنا: «يداه قذرتان»، لكنك أَحْببتَ: «أن تكون قذرةً أفضل من أن تكون فارغة».

جاليليو : أن تكون قذرة أفضلُ من أن تكون فارغة. هذا ينبئ عن روح عملية. وهذا يشـبه ميولي. العلم الجديد يقتضي أخلاقا جديدة.

أندريا : كان مـن الواجب أن أكـون أول من يعرف هـذا. لقد كان عمري الحادية عشرة لما أن بعثَتَ إلى مجلس شيوخ جمهورية

البندقية العدسة التي اخترعها غيرك. وشاهدتك تستخرج من هذه الآلة.. نتائج خالدة. وأصدقاء هزوا رؤوسهم لما انحنيت أمام طفل فيرنتسه: لكن العلم كسب بذلك جمهورا. وفي ذلك الوقت أيضا كان الأبطال يثيرون فيك الضحك. كنت تقول: «إني أنزعج من الناس الذين يتألمون». «الشقاء ينتج عن سوء التقدير»، «أمام العقبات أقصر طريق بين نقطتين يمكن أن يكون الخط المنحنى».

جالليو : أتذكر ذلك.

أندريا : ولما استحسنت – في سنة ٣٣ – أن تتبرأ من نقطة في مذهبك تتميز بالشعبية، كان واجبا عليّ أن أحزر أنك ستتخلص فقط من معركة سياسية لا أمل في الانتصار فيها، ابتغاء جعل المهمات الحقيقية في العلم تتقدم..

جالليو : وهذه المهمات هي...

أندريا : دراسة خواص الحركة، والحركة أُمّ الماكينات، والماكينات هي وحدها القادرة على جعل الأرض قابلة للسكنى إلى الحد الذي معه يمكن الاستغناء عن السماء.

جالليو : آه، هكذا!

أندريا : لقد فزت بالفراغ اللازم لتأليف كتاب علمي كنت وحدك القادر على تأليفه. فلو أنك انتهيت على النار، في هالة من نار، لكان الآخرون هم الذين كسبوا.

جالليو : وهم الذين كسبوا. ولا يوجد عمل علمي يستطيع إنسان بمفرده القيام به.

أندريا : إذن لماذا تبرأت من مذهبك؟

جالليو : تبرأت لأني كنت أخاف من الآلام البدنية.

أندريا : ليس هذا صحيحا.

جالليو : لقد أروني أدوات التعذيب.

أندريا	:	لم يكن ذلك منك إذن نتيجة حسابٍ قَدّرته؟
جالليو	:	لا.
أندريا	:	(بصـــوت قويّ) ليس للعلم غير قانون واحد، هو: الإســـهام في العلم.
جالليو	:	وإســـهامي قد قدّمته. فمرحبـــا بك في النهر، أي أخي في العلم، وابن عمي في الخيانة. أتأكل السمك؟ عندي سمك. والرائحـــة الكريهة لا تنبعث من ســـمكي، بـــل منّي أنا. أنا أبيع بأبخس الأثمان، وأنت المشتري. من يقاوم عندما يرى الكتاب، هذه السلعة؟ سيتدفق الماء في فمك ويغرق اللعنات وعاهرة بابل الكبرى، البقرة القاتلة ذات الغلالة القرمزية، تفتح ساقيها، وإذا بكل شيء قد تحول وتغيّر. ليتقدس اسم جماعتنا المحتالة، غاسلة العار، والخائفة من الموت.
أندريا	:	الخوف من الموت أمر إنساني. وضروب الضعف الإنساني لا شأن لها بالعلم.
جالليو	:	هذا غير صحيح! يا عزيزي ســـارتي، حتى في الحالة التي أنا فيها، أشـــعر بأني لاأزال قادرا على أن أبين لك بإيجاز ما له شـــأن وما ليس له شـــأن بهذا العالم الذي أســـلمت أنت إليـــه روحك وبدنك. (لحظة صمـــت قصيرة. جالليو يضع يديه متقاطعتين على بطنه متخذا موقف الأســـتاذ). في ســـاعات فراغي، وما أكثرها، راجعت حالتي من أولها إلى آخرها، وفكّرت في الحكم الذي سيطلقه عليها العالم العلمي الذي أحسب نفسي لم أعد أنتسب إليه. وحتى تاجر الأقمشـــة مضطر ليس فقط إلى أن يشتري بثمن رخيص ويبيع بثمن غال، بل وأيضا إلى أن يعمل على أن تســـتطيع تجارة الأقمشـــة أن تنمو وتتسع من دون عوائق. ويبدو لي أن ممارســـة العلم تتطلب لهذا الغرض شجاعة خاصة. إن العلم يعمل بواســـطة معرفة يتم الحصول عليها بالشـــك. والعلم وهو يزود الجميع بمعرفة عن جميع الأشـــياء يهدف

إلى أن يجعل من الجميع «شــكاكا». لكن الأغلبية العظمى من النـــاس قد أبقاهم الأمراء، وكبار الملاك، ورجال الدين في ضباب خَـدّاع من الخرافات والعبـــارات العتيقة التي تستر مؤامراتهم. وشقاء الأغلبية قديم قدم الجبال، ومنبر الكنيسة وكرســـي الجامعة يعلنان أن هذا الشقاء لا يمكن أن يزول، شأنه شـــأن الجبال. وأسلوبنا الجديد في الشك بعث الحماســـة في نفوس الجمهرة العظمى، فانتزعوا من أيدينا التلسكوب (المقراب) وصوّبوه إلى معذبيهم. والناس الأنانيـــون العنيفون، الذيـــن تملكوا ثمار العلم بشـــراهة، شـــعروا في الوقت نفســـه بنظرة العلم الباردة مصوبة نحو شـــقاء جاثم منذ آلاف السنين، لكنه مصطنع، تمكن إزالته بإزالتهم هم. فحاصرونا بالتهديدات والمناورات المفســـدة، التي لا تســـتطيع النفوس الضعيفـــة مقاومة إغرائها. لكن هـــل نســـتطيع أن نتخلى عـــن الجماهير ونبقـــى مع ذلك علمـــاء؟ إن حركات الأجرام الســـماوية صار من الســـهل إدراكها، أما بالنســـبة إلى الشـــعوب فحركات سادتها بقي من المستحيل تقديرها. ولقد كسبنا الكفاح من أجل قياس الســـماء، وذلك بفضل الشك، ولكن كفاح ربات البيوت في إيطاليا من أجل قدح من اللبن ســـيضيع هباء باســـتمرار، وذلك بسـبب سـذاجة الاعتقاد. والعلم، يا سارتي، يخوض كلا الكفاحـــين. والإنســـانية وهي تتعثر في هذا الســـراب مـــن الخرافات والعبارات العتيقة منذ آلاف الســـنين، ومن الجهـــل بحيث لا تنمـــي طاقتها الخاصة تنميـــة عميقة – هذه الإنســـانية لن تكون قادرة على تنمية طاقات الطبيعة التي اكتشـــفتموها. من أجل ماذا تعملـــون أنتم؟ أعتقد أن الغـــرض الوحيد مـــن العلم هو العمل علـــى تخفيف عبء الحياة الإنسانية. لو اقتصر العلماء – بتخويف من السادة الأنانيين – على تكديس العلم من أجل العلم، فســـيكون من الممكن تشـــويه العلم، وآلاتكم الجديدة لن تفيد إلا في خلق

متاعب جديدة. وربما اســتطعتم مع الزمن أن تكتشفوا كل مــا يمكن اكتشــافه، ومع ذلك فإن تقدمكــم لن يكون غير مواصلة للسير، تاركين الإنســانية وراء ظهوركم بمسافات بعيدة. والانقطــاع بينكم وبينها يمكــن ذات يوم أن يصير من العمق بحيث تكون الصيحة أمام انتصار جديد جوابها هو صيحة فزع. بوصفي عالمــا كانت لديّ إمكانية فريدة. عشت في العصر الذي فيه وصل علم الفلك إلى الساحات العامة. وفي هذه الظروف الخاصة، كان ثبات إنسان واحد ربما أحــدث اضطرابات هائلة. لو أنني أنا قاومت، لأمكن علماء الطبيعة أن يضعوا شيئا شبيها بقَسَم أبقراط، قسَم الأطباء، أعني التعهد القاطع بعدم اســتخدام العلم إلا في خير بني الإنسان! لكن على حسب ما تجري عليه الأحوال الآن، فــإن كل ما يمكن أن نراه هو الحصول على جنس من الأقــزام المخترعين، يمكن أن ندفع لهــم الأموال لعمل أي شــيء. وفضلا عن ذلك، يا سارتي، صرت أعتقد اعتقادا جازما أنني لم أشــعر قط بأنني في خطر حقيقي. وطوال عدة سنوات كنت قويا قوة السلطة. ووضعت علمي بين يدي أساتذة كي يفيدوا أو لا يفيدوا منه، أو ليسيئوا استخدامه، بحسب ما يخدم أهدافهم. (دخلت فرجينيا، حاملة صحنا، تتوقــف) لقد خنت واجبات مهنتــي.، وإن رجلا صنع مثل صنيعي لا يمكن قبوله بعد في جماعة رجال العلم.

فرجينيا : لقد قُبِلْتَ في جماعة المؤمنين.

(تقترب، وتضع الصحن على المنضدة)

جاليليو : هذا صحيــح. والآن عليّ أن أتناول الطعــام. (أندريا يمد إليه يــده. جاليليو يرى اليد، ولكنــه لا يصافحه) أنت الآن أســتاذ. فهل تخاطر بمصافحة يد مثل يدي؟ (يذهب نحو المنضــدة). عابر مرّ من هنا وأرســل إليّ إوزتين. أنا دائما أحب أطايب الطعام.

أندريا : إذن لم يعد من رأيك أن عصرا جديدا قد بدأ؟

جالليو : بلـــى! خذ حذرك تماما وأنت تخترق ألمانيا والحقيقة تحت ثيابك.

أندريا : (وهو غير قادر على الرحيل) فيما يتعلق بتقديرك للمؤلف الذي تحدثنا عنه، لا أستطيع أن أقدم إليك جوابا. لكني لا أستطيع أن أتصور أن تحليلك القاسي هو الكلمة الأخيرة.

جالليو : شكرا، يا سيدي.

(يبدأ في الطعام)

فرجينيا : (وهي تصطحب أندريـــا إلى الخارج) نحن لا نحب زيارات معارفه القدماء، لأنها تسبب له تهيجا.

(أندريا يخرج. فرجينيا تعود)

جالليو : هل لديك فكرة عمن عسى أن يكون قد بعث بالإوزتين؟

فرجينيا : من المؤكد أنه ليس أندريا.

جالليو : ربما. كيف حال الليل؟

فرجينيا : (وهي عند النافذة) صاف جدا.

* * *

(١٥)

(ســنة ١٦٣٤. «كتــاب الأقــوال» لجاليليــو يعبــر الحدود الإيطالية)

يا أعزائي احفظوا ذي الخاتمة:

عبر العلم الحدود، بينما

نحن طلاب المعارف

قد بقينا خلفها – أنا وهو.

فعلى نور العلوم – حافظوا!

من مزاياها استفيدوا، واحذروا

سوء الاستعمال خوفا أن تصير

سَقَرًا، يُحْرقنا، نُصْهَر فيه

كُلّنا نُصْهَر فيه أجمعين

مدينــة صغيرة على الحــدود الإيطالية. الصبــاح الباكر. بالقرب من حواجز المراقبة يلعب أطفال، وأندريا، بصحبة حــوذيّ ينتظر أن يفرغ حرس الحــدود من فحص أوراقه. يجلس على صندوق صغيــر ويقرأ مخطوطة جاليلو. وفي الناحية الأخرى من الحدود توجد العربة)

الأطفال (وهم يغنّون):

ماريّا بقميصٍ وردي

جلست، واللهِ، على الصخر

فتلطخ بالزبل وبالوحل

لكن شتاء مبتردا

جعل المسكينة تلبسه

أوّلى التلطيخُ من المِزَق

حارس الحدود	:	لماذا تغادر إيطاليا؟
أندريا	:	أنا عالم.
حارس الحدود	:	(مخاطبا الكاتب) اكتب: «الغرض من السفر: عالم». عليّ أن أفتش أمتعتك. (يفتش)
الطفل الأول	:	(مخاطبا أندريا) يجب عليك ألا تبقى جالسا في هذا المكان. (يشير إلى الكوخ الذي يجلس أمامه أندريا). هناك ساحرة تسكن.
الطفل الثاني	:	هذا غير صحيح. مارينا العجوز ليست ساحرة.
الطفل الثالث	:	بلى! إنها تطير في الهواء إبّان الليل.
الطفل الأول	:	ولماذا لا يعطيها أحد في المدينة حتى قدح لبن، إذا لم تكن ساحرة؟
الطفل الثاني	:	لكن كيف تستطيع أن تطير في الهواء؟ لا يوجد إنسان يستطيع ذلك. (مخاطبا أندريا) هل يمكن هذا؟
الطفل الأول	:	(من فوق رأس الطفل الثاني) هذا جوزبي: وهو لا يعرف شيئا عن أي شيء، والدليل على ذلك أنه لا يذهب إلى المدرسة، وأنه ليست له سراويل مقبولة.
حارس الحدود	:	ما هذا الكتاب؟
أندريا	:	(دون أن يرفع عينيه) هذا كتاب للفيلسوف العظيم أرسطو.
حارس الحدود	:	(مرتابا) من هذا الرجل؟
أندريا	:	لقد مات منذ زمن.
		(الأطفال يدورون حول أندريا سخريةً منه وهم يتظاهرون بأنهم يقرأون كتابا)
حارس الحدود	:	(مخاطبا الكاتب) انظر، هل في هذا الكتاب شيء عن الدين.

الكاتب : (يتصفح أوراق الكتاب) لا أجد فيه شيئا.

حارس الحدود : الواقع أنه لا فائدة في البحث هكذا. ما يريد الإنسان إخفاءه لا يمكنه أن يعرضه هكذا. (مخاطبا أندريا) عليك أن توقع على أننا فتشنا كل شيء.

(أندريا ينهض مترددا، ويتبع حارس الحدود إلى داخل مركز الحدود، وهو مستمر في القراءة)

الطفل الثالث : (مخاطبا السكرتير، وهو يريه الصندوق) هناك شيء آخر، ألا تراه؟

الكاتب : لم يكن موجودا من قبل؟

الطفل الثالث : العفريت هو الذي وضعه هناك. إنه صندوق.

الطفل الثاني : لا. إنه يخص المسافر.

الطفل الثالث : أنا لن ألمسه. لقد سحر خيول باسيّ Passi الحوذي. وأنا بنفسي نظرت من خلال الثقب الذي أحدثته عاصفة الثلج في السقف، وسمعت كيف كانت تسعل.

الكاتب : (وكان قريبا من الصندوق، يتردد ويعود أدراجه) أمور عفاريت، أليس كذلك؟ على كل حال لا نستطيع أن نفتش كل شيء. أين نذهب؟

(يعود أندريا ومعه إبريق من اللبن. يعود إلى الجلوس على الصندوق ويستأنف القراءة)

حارس الحدود : (وهو يتبعه ومعه أوراق) أغلق الصناديق. هل كل الأمتعة عُلّمت؟

الكاتب : كلها.

الطفل الثاني : (مخاطبا أندريا) قل لنا، وأنت رجل عالم: هل يمكن الإنسان أن يطير في الهواء؟

أندريا : انتظر قليلا.

حارس الحدود	:	تستطيع أن ترحل. (أخذ الحوذي الأمتعة. أندريا يأخذ الصندوق ويستعد للرحيل) قف! ماذا في هذا الصندوق؟
أندريا	:	(آخذا كتابه في يده) كتب.
الطفل الأول	:	هذا صندوق الساحرة.
حارس الحدود	:	غير معقول. كيف تستطيع هذه المرأة أن توجد صندوقا؟
الطفل الثالث	:	لأن العفريت يساعدها.
حارس الحدود	:	(ضاحكا) هذا لا يخيل علينا هنا. (مخاطبا الكاتب) افتح هذا. (فتح الصندوق. دمدمة) كم عددها؟
أندريا	:	أربعة وثلاثون.
حارس الحدود	:	(مخاطبا الكاتب) كم من الزمن يستغرق فحص هذه؟
الكاتب	:	(وقد بدأ يفحص من دون انتباه) كلها مطبوعة من قبل. ثم إن الأمر قد يؤخر إفطارك، ثم إذا كان عليّ أن أتصفح كل هذه الكتب، فمتى أستطيع أن أذهب إلى بيت باسي Passi الحوذي لأحصِّل المبلغ المتأخر عليه من العوائد؟ سيباع بيته بالمزاد...
حارس الحدود	:	آه، صحيح، لا بد لنا من العمال. (يضرب الكتب بقدمه) أوه، ماذا يمكن أن يكون فيها؟ (مخاطبا الحوذي) اكنس!
		(أندريا يجتاز الحدود مع الحوذي الذي يحمل الصندوق. ولما وصل إلى الجانب الآخر من الحدود، وضع مخطوطة جالليو في حقيبة سفره)
الطفل الثالث	:	(مشيرا إلى الإبريق الذي تركه أندريا) انظر!
الطفل الأول	:	والصندوق رحل. هاأنت ذا ترى أنه العفريت!
أندريا	:	(ملتفتا وراءه) لا، بل أنا. يجب أن تتعلم كيف تفتح عينيك. اللبن دفع ثمنه، وكذلك الإبريق. إنه من أجل المرأة العجوز. آه، يا جوزبي، لم أجب بعد عن سؤالك. لا يمكن الإنسان

أن يطير في الهواء بواســطة عصا. لا بد من آلة، لكن هذه الآلة لم توجد بعد. ربما لن توجد أبدا، لأن الإنســان ثقيل جــدا. لكن لا أحد يدري. يا جوزبــي، لايزال علمنا قليلا، ولايزال يعوزنا الكثير. الواقع أننا في البداية فقط.

* * *